سلسلة نوادر المخطوطات

عيوب النفس ودواؤها

لأبى عبد الرحمن السلمى

(٣٢٥- ٤١٢هـ)

مع مقدمة عن
النفس كما تحدث القرآن

تحقيـــق وتقديم

أ.د/ محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة

١٤٣٤هـ / ٢٠١٢م

وتأليف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

كانت النفس الإنسانية – ومازالت – إحدى محارات العقل البشرى لكثرة أحوالها، وسرعة تقلبها بين المتضادات من الأحوال، فهى حينًا طائعة، وأحيانًا عاصية، وعيوبها كثيرة ومتنوعة، فمنها الظاهر الجلى، ومنها الباطل الخفى، وكتابات المفكرين حولها لا تدل إلا على تجاربهم الذاتية فقط؛ ولذلك كانت آراؤهم حولها يشوبها الغموض أحيانًا والتناقض أحيانًا أخرى، وليس ذلك – فى رأينا – إلا سببًا فى ندرة الدراسات النفسية فى فكرنا الإسلامى إذا ما قورن ذلك بغيرها من القضايا الأخرى.

ويتزامن إخراج هذا الكتاب مع واقع سيء يعيشه المسلمون فى عصرنا هذا، فهناك مؤامرة عالمية على تصفية دولة البوسنة والهرسك الإسلامية من أوروبا، ويبارك هذه المؤامرة صمت حكام المسلمين صمتًا قاتلًا لكل معانى الأخوة الإسلامية والنجدة والمناصرة، وأصبحت الشعوب الإسلامية لا حول لها ولا قوة، وصارت مقاليد أمورهم بيد غيرهم لا بيدهم، واستأسدت عليهم الشعوب من كل جانب، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

والذى قاد المسلمين إلى هذا الواقع المؤلم هو تبدل أحوالهم بحيث أصبح

كل شيء فى حياتهم يعلوه الزيف والنفاق وعدم المصارحة بالحقيقة مع وضوحها. وصار الأمر كما قال الشاعر:

كم صرَّفنا يد كنا نصرِّفها وبات يملكنا شعب ملكناه

والكتاب الذى أقدمه للقارئ هو نوع من المصارحة بعيوب النفس، هو كالمرآة المجلوة التي يجد فيها كل منا نفسه بلا زيف ولا نفاق. فإذا ما عرفت عيوبنا بصدق وأمانة على مستوى الفرد والأمة سهل علاجها إذا صدقت النوايا، والمجتمع السليم ليس فى النهاية إلا مجموعة من الأفراد الأسوياء، وكما تكونون يولى عليكم.

أ.د/ محمد السيد الجليند

الدوحة

١٣ يناير ١٩٩٣م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أبو عبد الرحمن السلمى

(٣٢٥- ٤١٢هـ)

هو محمد بن الحسين (أبو عبد الرحمن السلمى) نسبة إلى قبيلة سليم بن منصور، ولد فى خراسان سنة ٣٢٥هـ، نشأ فى أسرة فقيرة عرف والده بالورع، كما عرفت والدته بالفضل والتقوى، حفظ القرآن وهو صغير، واشتهر برواية الأشعار، تعلم الحديث والعربية والتصوف، ومن شيوخه الدارقطنى، وأبو نعيم الأصفهانى صاحب الحلية، قصده كثير من طلاب العلم وتتلمذوا عليه، من أشهرهم البيهقى المحدث، والجوينى المتكلم، والقشيرى الصوفى، والواسطى.

قال عنه أبو نعيم: هو أحد من لقيناه ممن له العناية التامة بتوطئة مذهب الصوفية وتهذيبه على ما بيَّنه الأوائل من السلف، مقتدٍ بسنتهم، ملازم لطريقتهم، متبع لآثارهم، مفارق لما يؤثر عن المنحرفين المتهوسين من رجال هذه الطائفة، كما حكى أنه كان له أعداء وخصوم حملوا عليه فى قسوة، واتهموه بأنه ليس له باع فى الحديث.

حكى البغدادى فى تاريخه أن السلمى قدم بغداد عدة مرات، وحدَّث بها عن شيوخ خراسان ومنهم أبو العباس الأصم، كان ذا عناية خاصة بأخبار

الصوفية وجمع مأثوراتهم، وعرف عنه أنه صنَّف للصوفية سننًا، ووضع لهم تفسيرًا أسماه (حقائق التفسير) حقَّقه وطبعه صديقنا العراقى، أخذ فيه بالمنهج الصوفى المشهور بالتفسير الرمزى للقرآن.

ونقل البغدادى عن القشيرى أن السلمى كان يومًا عند الدقاق (من كبار الصوفية) وجرى أمامه حديث عن السلمى وأنه يقوم فى السماع ويتواجد مجاراة للفقراء وموافقة لهم، فقال الدقاق: مثله فى حالة؟ لعل السكون أولى به، ثم قال لى: اذهب إلى السلمى وستجده جالسًا فى بيت كتبه. وعلى وجه الكتب ستجد مجلدة حمراء فيها شعر للحسين بن منصور (الحلاج) فأتنى بها. يقول القشيرى: فترددت أمام نفسى ماذا أفعل. ثم ذهبت إلى السلمى فى بيته فوجدته جالسًا كما وصف لى الدقاق، ووجدت المجلدة الحمراء فى مكانها الذى أشار إليه، فقلت للسلمى ما قاله لى الدقاق وما طلبه منى. وقلت له: بماذا تأمر؟ فأخرج لى مجموعة من الكتب وطلب منى أن أنقلها إلى الدقاق، وكلها من كلام الحسين بن منصور الحلاج، ومن بينها مصنف باسم (الصيهور فى نقد الدهور). وقال لى: احمل هذه إلى الدقاق وأخبره أن المجلدة الحمراء التى طلبها أنا مشغول بمطالعتها الآن. يقول القشيرى: ولما دخلت على السلمى وجدت عنده الأصحاب يتكلمون عن رجل من العلماء وينكرون عليه حركته عند السماع؛ لأنهم رأوا ذلك الرجل يومًا يتواجد فى بيته وكان بمفرده، فسئل عن ذلك فقال لهم: كانت مسألة مشكلة أمامى، ثم ظهر لى حلها، وتبينت معناها، فلم أتمالك نفسى، وحدث لى ما حدث.

وكان للسلمى دويرة صغيرة بنيسابور يقيم بها، وكان يسكن بها بعض الصوفية أحيانًا ضيوفًا على السلمى، وقيل: إن قبره بنيسابور بجانب دويرته ويقصده العامة للتبرك به.

ولعل رواية القشيرى السابقة تدلنا على صلة السلمى بالحسين بن منصور الحلاج وبتراثه، مما يتوقع معه تأثره بالحلاج فى المنهج والسلوك، غير أن الرسالة التى بين أيدينا لا تدل على شيء من ذلك التأثر؛ لأن معانيها صحيحة جملة وتفصيلًا، وليس فيها شيء من الشطط أو الغلو الصوفى، ولم نقرأ عن السلمى أنه قال أو أشار فى مأثوراته إلى نوع من الحلول أو الاتحاد كما هو عند الحلاج ومدرسته. وإذا كان تفسيره للقرآن يسير على المنهج الرمزى فإن ذلك يعد خروجًا على المنهج الذى سار عليه فى كتابنا هذا (عيوب النفس ودواؤها). وكان السلمى يمثل فى نيسابور المرجع الذى يأوى إليه صوفية عصره، حيث كان يخصص مكانًا فى دويرته لإقامتهم فيها، مما جعل الذهبى ينقل عن الشيخ "أبو بكر" أن السلمى كان كبير القدر جليل الشأن بين صوفية عصره.

ومن أهم مؤلفاته:

١) آداب المغازى.

٢) الأربعون حديثًا (مختارة).

٣) أمثال القرآن.

٤) مناهج العارفين.

٥) مقدمة فى التصوف.

٦) الفرق بين الحقيقة والشريعة.

٧) محن الصوفية.

٨) مقامات الأولياء.

٩) تاريخ أهل الصفة.

١٠) غلطات الصوفية.

١١) حقائق التفسير.

١٢) جوامع آداب الصوفية.

١٣) تاريخ الصوفية (لعله طبقات الصوفية).

١٤) درجات المعاملات.

١٥) زلل الفقر.

١٦) الزهد.

١٧) سلوك العارفين.

١٨) السماع.

١٩) عيوب النفس ودواؤها.

٢٠) سنن الصوفية.

٢١) الأخوة والأخوات من الصوفية.

٢٢) الاستشهادات.

ولا أريد أن استطرد كثيرًا فى الترجمة للسلمى؛ لأن ذلك شيء ليس داخلًا فى خطتنا من إخراج هذه المخطوطة، ويضاف إلى ذلك أن محقق

(طبقات الصوفية) الأستاذ شريبة قد ترجم له ترجمة وافية بالمقصود فليرجع إليها من أراد ذلك؛ فضلًا عن أن كتب التراجم القديمة قد تكلمت عن السلمى كثيرًا، فلا داعى لتكرار ذلك هنا[1]. والذى يعنينا هنا بالمقام الأول هو الحديث عن (عيوب النفس ودواؤها).

منهجنا فى تحقيق الكتاب:

١- اعتمدنا فى تحقيق هذا النص على مخطوطة وحيدة تحمل رقم (٢١٥٠٤) بدار الكتاب المصرية، وهى عبارة عن (٣٢) لوحة (أ، ب) ملحق بها فى نهايتها مخطوطة أخرى عبارة عن وصية أبى عبد الرحمن السلمى عبارة عن سبع لوحات (أ، ب). والنصان مكتوبان بخط ناسخ واحد كما هو واضح منهما، وبخط نسخ واضح فى معظم كلماته.

فى كل صفحة واحد وعشرون سطرًا، تتراوح كلمات السطر الواحد بين ست أو سبع كلمات، كان الناسخ أحيانًا يصوب بعض الكلمات فى الهامش ويشير إليها بالرمز فى الداخل؛ كما فى لوحة (١أ)، (١٢أب)، (١٩ب)، (٢٥ب).

٢- كما كان يشير الناسخ فى الهامش أحيانًا إلى مراجعته هذه النسخة على نسخة أخرى فيكتب بالهامش (بلغ) كما فى (٢٠أ)، ويوجد بالمخطوطة بعض الكلمات المطموسة التى يتعذر قراءتها، فكنا

(١) على سبيل المثال فليراجع من أراد المزيد كتاب مفتاح السعادة ٤٥١/١، ميزان الاعتدال ٤٦/٣، تاريخ بغداد ٢٤٨/٢، اللباب ٥٥٤/١، اليواقيت والجواهر للشعرانى.

نجتهد فى قراءتها حسب السياق ونشير بالهامش إلى ما هو موجود بالأصل؛ كما هو مبين فى موضعه.

٣- بدأت المخطوطة باللوحة الأولى (أ-ب) وقد كتب فى صفحة (أ) من أعلى ما يلى: ب ٢١٥٩٤ وتحتها مباشرة كتب ما يلى:

كتاب يذكر فيه عيوب النفس

للشيخ عبد الرحمن

السلمى رضى الله

عنه آمين

وصلى الله

على نبينا

محمد

وآله

وصحبه وسلم

اللوحة الأولى من المخطوط

اللوحة الأخيرة من المخطوط ويظهر عليه أول الوصية

٤- ثم بدأ النص بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عـرَّف أهـل صـفوته عيـوب أنفسـهم ... الـخ. وكان الناسخ يكتب فى نهاية كل صفحة (أ) من كل لوحـة الكلمـة الأولى من صفحة (ب) فى نفس اللوحة والـتى تعتـبر فى عـرف المحققـين مفتاحًا لها، وتسمى (تعقيبة).

٥- وفى نهاية النص ختم المؤلف كتابه بهذا الدعاء: والله تعالى يوفقنا لمتابعة الرسل، ويزيل عنا موارد الغفلة والشهوات، ويجعلنا فى كنفه وحياطته وعصمته ورعايته، فإنه القادر على ذلك، والوهاب له، إنه أرحم الراحمين، انتهت فصول عيوب النفس للشيخ السلمى – رحمه الله – ورضى عنه أمين أمين. تم هذا بحمد الله.

٦- ثم يلى ذلك مباشرة وفى نفس الصفحة الخاتمة من أسفل بداية الوصية التى كتبها السلمى حيث تبدأ بهذه العبارة: هذه وصية الشيخ أبى عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى – رحمه الله تعالى آمين – وبعدها بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أوصيك يا أخى، أحسن الله توفيقك ونفسى بتقوى الله. وكتب فى الهامش (فإنها إن اتقيت الله) كفاك كل هم ... الخ.

٧- وفى الصفحة الأخيرة من الوصية يوجد ختم دار الكتب المصرية وبعض أبيات من الشعر تحت عنوان: قصيدة استغاثة. جاء فى

البيت الأول منها:

إليك مددت الكف فى كل شدة

ومنك وجدت اللطف فى كل جانب

٨- ومن الأمور اللافتة للنظر أنه ليس على أى من النصين المذكورين (كتاب العيوب، والوصية) أى تاريخ يحدد لنا تاريخ نسخهما، ويمكن أن نستنتج من رسم الخط وطريقة كتابة بعض الحروف (خاصة حرف الهاء والطاء) أنها تعود إلى القرن الخامس أو السادس الهجرى.

٩- وقد التزمنا بالنص المقروء فى تحقيق هذه الرسالة كلما أمكن ذلك، وكانت هناك بعض الكلمات غير مقروءة أو مرسومة رسمًا إملائيًا يخالف المعنى والسياق العام، فكنا نقوم بتصويبها والإشارة إليها فى الهامش.

١٠- كذلك قمنا بتخريج الآيات والأحاديث الواردة فى النص.

١١- أما الأعلام التى وردت فى النص فقد ترجمنا لمعظمها؛ خاصة ممن كان لهم رأى أو قول مأثور، ولم يشذ عن ذلك إلا عدد قليل ممن لا يحتاج الموقف للترجمة لهم إما لشهرتهم وإما لعدم حاجة النص لهم.

١٢- احتاج الأمر أن نتدخل فى بعض الأحيان بزيادة كلمة يحتاج السياق إليها ليستقيم بها النص معنى ولغة، فكنا نضع ذلك بين معقوفين [ ] ونشير إليها فى الهامش.

١٣- والنسخة التى اعتمدنا عليها موثقة فى كثير من المواضع فقد

أشار الناسخ إلى ذلك فى أكثر من موضع بقوله: بلغ أو بلغ مقابلة. مما يدل على أنها روجعت على نسخة أخرى أو روجعت على المؤلف أو على بعض تلاميذه، أو لعلها منقولة عن نسخة موثقة، لم نتمكن من الحصول عليها.

منهج المؤلف:

لقد أخذ السلمى فى هذا الكتاب بمنهج سهل وميسور، فكان يذكر العيب الذى يأخذه على النفس ويشرحه بلفظ موجز، ثم يردفه مباشرة بذكر العلاج الذى يشير إليه القرآن أو السنة النبوية أو ما تيسر له من أقوال الصحابة والتابعين، وأحيانًا من مأثورات الصوفية، وكان سنده فى التعرف على هذه العيوب هو حديث القرآن عن النفس وأحوالها، وحديث الرسول ﷺ عن النفس وأثرها فى السلوك، كما كان يعتمد فى ذلك أحيانًا على مأثورات الصوفية ومنهجهم السلوكى العام، وكان لذلك أثره فى تعداد عيوب النفس، فكان يذكر الحالة أو الصفة التى يراها عيبًا للنفس معتمدًا فى ذلك على ما يراه الصوفية وقد لا يكون لذلك سند قوى من الكتاب أو السنة، ولكنه فى المنهج الصوفى يعد عيبًا، وذلك مثل ما ذكره السلمى عن فرح النفس، وكلامه عن الجمع بين حب الدنيا والآخرة وأنهما لا يجتمعان فى قلب واحد، فكان يذكره ويجمع بين الرأيين بمنهج شرعى ومقبول.

- ١ -

ولقد ذكر السلمى فى هذا الكتاب ما يقرب من سبعين حالة من أحوال النفس الإنسانية واعتبرها عيبًا وعلة أو مرضًا، ونبهنا فى أول الكتاب إلى أن

هدفه من ذكر هذه العيوب ليس هو الحصر أو الاستقصاء، وإنما هى على سبيل التنبيه والتمثيل فقط؛ لأن عيوب النفس عند القوم لا تكاد تحصى، فالنفس عندهم كلها عيوب، «وكيف يمكن إحصاء عيوب ما كلها عيوب»[1] وما على القارئ إلا أن يجعل هذه العيوب المذكورة فى هذا الكتاب دليلًا ونبراسًا له يهتدى بها إلى التعرف على غيرها من العيوب التى لم يرد ذكرها، ويجعل من معرفته بهذه العيوب مفتاحًا له إلى معرفة غيرها، حتى يتعرف على عيوب نفسه قدر استطاعته، فيشتغل بإصلاحها على المنهج الذى رسمه المؤلف فى هذا الكتاب.

ويمكن أن نصنف العيوب التى أوردها السلمى إلى ثلاثة أنواع:

١- فمنها عيوب تتصل بالنفس البشرية وعلاقتها بالله سبحانه باعتباره الخالق الرازق وحده، النافع الضار وحده، فينبغى عند معرفة النفس لذلك أن تتعلق به وحده تعلق الغايات والمقاصد، وأن تكون علاقتها بغيره علاقة الوسائل فقط، وأن تفرق فى ذلك بين ما ينبغى أن يقصد لذاته وهو الله، وما يقصد لغيره وهى الوسائل.

٢- ومنها عيوب تتصل بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأنها ينبغى أن تقوم على أساس اليقين بما ذكرناه فى النوع الأول، فلا يضع من لا يملك ولا يضر ولا ينفع فى موضع من يملك وحده ويضر وينفع وحده وغيره لا يقدر على ذلك، وبالتالى فلا تسأل النفس

(١) انظر: لوحة (٣١ب).

غير الله ولا تلوذ بغيره، ولا تطمع إلا فيمن يملك العطاء بلا مقابل، فإذا أحبت أو كرهت أعطت أو منعت، فينبغى أن يكون ذلك لله وحده.

٣- ومنها عيوب تتصل بطبيعة النفس فى ذاتها، وما فيها من نقص وما يلازمها من الجهل والفقر، وخصائصها وكونها نفسًا بشرية وليست ملائكية، وهذا النوع من العيوب ذاتى فى النفس، ولذلك فإن مجاهدة النفس له أشق وأصعب، وذلك مثل الطمع وحب العلو فى الأرض، وحب المدح والثناء، والكسل عن الطاعات، والركون إلى الراحة ... الخ. وهذا النوع من العيوب قد لا يحسه المرء من نفسه، ولا يشعر به إلا بعد طول تأمل ومجاهدة ومحاسبة، وقد يحسه المرء؛ لكنه ينكره ويكره من يذكّره به أو ينصحه بالعلاج منه، وهذا من أخطر العيوب التى تصيب النفوس البشرية؛ خاصة إذا استحكمت هذه العيوب فى النفس ولم تجد المقاومة أو المجاهدة، فتصير طبعًا وسجية للنفس، فيصعب علاجها، لا سيما أن قابلية النفس لهذا المرض موجودة فى النفس؛ لأنه يوافق هواها، وعدم الرغبة فى العلاج قائمة بها؛ لأن العلاج هنا على خلاف هواها.

والمنهج الذى أخذ به السلمى فى وصفه لعلاج هذه العيوب مأخوذ من القرآن الكريم ومن السنة النبوية وسيرة السلف الصالح. وليس فى واحد منها ما هو غريب على هذا المنهج النبوى فى رياضة النفس ومعاملتها، فكان

يذكر العلاج مصحوبًا بالآية أو الحديث أو الأثر عن أئمة القوم.

وقد كتب كثيرون من الصوفية عن النفس وأحوالها وعيوبها ومجاهدتها ومحاسبتها كالترمذى، والمحاسبى، والمكى، والغزالى، ومن السلفيين من تكلم عن النفس وعيوبها كابن تيمية فى (أمراض القلوب وشفائها، ورسالة الحسنة والسيئة)، وابن القيم فى (طريق الهجرتين، والروح، وحادى الأرواح، ومدارج السالكين).

وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام مفكرى الإسلام فى حقولهم المختلفة بالنفس الإنسانية وعيوبها، وما يطرأ عليها من أمراض تستحق أن يتنبه لها المسلم، وأن يسارع بالأخذ فى علاجها على قدر طاقته، بالالتزام بالمنهج النبوى سلوكًا وتربية.

ولقد تنبه السلمى فى ذكره لهذه العيوب إلى كثير من الأمراض التى تصاب بها النفس، ولا يتنبه لها صاحبها، ومن أهمها – فيما ذكره السلمى – اهتمام المرء بتحسين الظاهر وتجميله وإهماله لتحسين الباطن وتزيينه، فيكون المرء فى ذلك قد راعى نظر الناس إليه، فاهتم بهم، وزين ظاهره لنظرهم إليه، وأهمل نظر الله إلى باطنه فلم يقم بتزيينه وتجميله، فصار اهتمامه بنظر الناس أولى وأهم من اهتمامه بنظر الله إليه، وهذا مرض الرياء والنفاق الذى ينبغى أن يسارع المسلم فى التخلص منه بتعاطى العلاج الذى وصفه السلمى، فيهتم بتزيين الباطن بإحياء القلب من غفلته، فيجعل غايته من كل أفعاله بدأً ونهاية هو الله، قصدًا وتعبدًا، فإن الله يغار على قلب المؤمن أن يشغل بغير الله، أو أن يقوم بعمل يشرك فيه غير الله إيمانًا بأن كل

عمل أشرك فيه صاحبه غير الله معه فهو رد عليه وليس الله فيه شيء. وهذه المعانى الدقيقة قد تغيب عن المرء فى كثير من الأحيان لدقتها وعدم الانتباه إليها وإلى خطورتها فى إحباط العمل والقدح فيه.

وإشارات السلمى إلى هذه العيوب وخطورتها نابع من اهتمام الإسلام نفسه بمبدأ أن الوقاية خير من العلاج، وأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا المبدأ فى حد ذاته أصل من أصول التربية التى ينبغى أن يلاحظها المربون والمشتغلون بالدعوة، ذلك أن علاج الداء قبل استحكامه من النفس أمر ميسور، قد يكفى فيه مجرد الملاحظة والتنبيه. أما بعد استحكام اللغة فإن الأمر فى ذلك يصبح صعبًا وعسيرًا، ومن هنا كان من منهج الصوفية فى مجاهدة النفس ورياضتها أن التخلية سابقة على التحلية، بمعنى أن يسارع المرء أولًا بعلاج عيوب نفسه؛ لتصبح النفس مؤهلة لتقبل كل معنى قويم والتخلق بكل خلق كريم، فالتخلص من الرذائل سابق على التحلى بالفضائل.

وهذا قد تنبه إليه كبار الصوفية – التخلية قبل التحلية – أمثال الجنيد والتسترى والغزالى، وكذلك أشار إليه كبار مفكرى السلف أمثال ابن تيمية وابن القيم.

– ٢ –

كذلك من المعانى الدقيقة التى أشار إليه المؤلف فقدان المسلم الإحساس بلذة الطاعة وعدم شعور القلب بحلاوتها، وهذا المعنى قل من يتنبه إليه؛ إذ من المعلوم أن الطاعة لذة يحس القلب المؤمن الحى بحلاوتها

ويجد عذوبتها فى ممارستها حتى وإن كانت ثقيلة على الجسم الترابى، إلا أن حياة القلب وشفافية النفس لا تحس من عناء الجسد إلا طعم العذوبة وبرد اليقين، فيزداد صبر المؤمن وتقوى عزيمته على الممارسة للطاعات، وكلما زاد إقباله على الطاعة والممارسة بالمجاهدة زاد قلبه صحة ونفسه شفافية، وهذا بخلاف الذى يمارس العبادات بألوانها المختلفة ولا يحس لها لذة ولا يجد لها بردًا واطمئنانًا يحيا به قلبه، فهذا نمط آخر يختلف تمامًا عن النمط الذى يتحدث عنه المؤلف، إنه بهذا اللون من الممارسة الجوفاء لألوان العبادة قد أسقط واجبًا دينيًا تحدث عنه الصوفية إنه حضور القلب وفرحه وسعادته بلذة الطاعة، إن ذلك من شروط صحة العبادة وبطلانها وغيابه عن دينه، كمن يصوم عن الطعام والشراب فى رمضان وجوارحه لاهية عابثة بكل قيمة دينية وأخلاقية، إنه بذلك قد امتنع عن الطعام والشراب؛ ليوهم نفسه بأنه صائم، مع أن الرسول أخبر عن هذا النمط بأنه ليس له من صومه إلا الجوع والعطش.

والأمر شبيه بذلك عند الشخص الذى لا يجد لذة لطاعته ولا يحس قلبه معها ببرد اليقين، بل يكاد السلمى أن يقول: إن من يحرم لذة الإحساس بالطاعة كاد أن يحرم ثوابها؛ لأنه بذلك قد فقد حياة القلب وهو يؤدى عبادته، وعندئذ قد تتحرك الجوارح بفعل الطاعة ولا يعيش معها القلب، فيكون أشبه بالغائب الحاضر أو الحاضر الغائب، وهذا ما حذر منه الصوفية فى منهجهم فى مجاهدة النفس ورياضتها؛ إذ لابد من الحضور القلبى؛ ليشغل القلب بالله فكرًا، كما شغلت الجوارح بالعبادة أداءً وتبتلًا.

-٣-

كذلك من الأمور التى لفت السلمى نظرنا إليها – خاصة المشتغلين بالعلم – أن البعض يحاول الحديث فى دقائق العلوم – كالإلهيات والغيبيات – ليس بقصد التعليم والتعلم – وإن كان يظهر للناس ذلك – وإنما يكون قلبه منعقدًا على أن يصيد بذلك قلوب الأغيار من العوام، ويصرف بحسن كلامه ودقيق معانيه وجوه الناس إليه؛ ليعلو بذلك شأنه بينهم، ويعلو ذكره فى مجالسهم، حتى يقولوا ما رأينا أعلم منه فى هذا الشأن، وإذا سألته عن مدى التزامه فى سلوكه بمبادئ علمه وجدته صفر اليدين، فصار علمه حجة عليه وليس حجة له، وصار حديث الناس عنه دينًا عليه وليس له. وللأسف الشديد نجد هذا الحال واقعًا بين الكثيرين ومشاهدًا فى أحوالهم، والرسول ﷺ قد حذر من ذلك فى الكثير من الأحاديث، لخطورة ذلك على قلب العالم، فإن مفتاح الغرور قابع فى لهج الناس بالحديث عنه وعن علمه.

ولا أريد أن أسترسل فى شرح المعانى الدقيقة التى أشار إليها المؤلف لكثرتها وخروج ذلك عن الهدف من هذه المقدمة الموجزة، ولكن الذى أود الإشارة إليه هنا هو التأكيد على ما سبق أن ذكرته أن هذه العيوب وعلاجها هى فى جملتها مأخوذة من الكتاب والسنة سواء بالتصريح إليها بالعبارة أو التلميح بالإشارة، ولم يقصد المؤلف من ذكرها حصرًا أو استقراءً لها، وإنما كان قصده التنبيه إلى بعض عيوب النفس التى ظهرت له، ووصل هو إليها بحسه الدينى وذوقه الصوفى وعلى القارئ أن يتأمل ذلك فى نفسه ويقيس عليها من عيوب النفس ما لم يذكره المؤلف، ولا شك أن ذلك فى حد ذاته

هدف نبيل ومنهج قويم فى محاسبة النفس ورياضتها، وأدعو الله أن ينفع بهذا العمل قارئه، ومحققه. والله من وراء القصد، وهو حسبي.

النفس كما يراها الصوفية

- ١ -

يعتبر هذا الكتاب حلقة فى سلسلة طويلة تمتد أبعادها التاريخية؛ لتشمل تاريخ الإسلام كله زمانًا ومكانًا، أما زمانًا فلأن الحديث عن النفس الإنسانية والاهتمام بها قد عرفه المسلمون منذ عصر النبوة، وفى مصادر الإسلام الأولى الكتاب والسنة؛ حيث تحدث القرآن كثيرًا عن النفس وهواها، كما تحدثت السنة المطهرة عن النفس وشرورها وعن هواها ورغائبها، وعن تسلطها على صاحبها، وأثر ذلك كله فى سلوك الإنسان.

وأما مكانًا فلأن المسلمين - خاصة الصوفية - قد شغلوا أنفسهم بالنفس وأحوالها أينما وجدوا، فى أقطار العالم الإسلامى شرقه وغربه وشماله وجنوبه، بحيث لا يكاد المرء يقرأ أثرًا صوفيًا إلا ويجد الحظ الأوفر حديثًا فيه عن النفس وأحوالها وعللها وآدابها، وكيف نروضها؟ وكيف تقع فريسة للشيطان؟

وقد اختلفت نظرة مفكرى الإسلام إلى النفس وتبع ذلك اختلاف موقفهم منها دراسة وتحليلًا وتساؤلًا. فالفلاسفة المسلمون قد ركزوا فى دراساتهم النفسية على الجانب النظرى أكثر من الجانب العملى السلوكى، فاهتموا بالتساؤل عن ماهية النفس، وقواها، وعلاقتها بالبدن، وهل اتصالها بالبدن عرضى أو جوهرى أو هو اتصال من نوع خاص؟ كما اهتموا بالحديث

عن خلودها فى الآخرة بعد فناء الجسد، وهل تفنى بفنائه أو هى خالدة دونه؟

نجد هذا الاتجاه سائدًا وعامًّا فى تراث الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى – الفيلسوف – وابن رشد والبغدادى (فى المعتبر فى الحكمة) والرازى فى كتابه (النفس والروح) وغيرهم ممن تأثر بآراء أرسطو من فلاسفة المشرق والمغرب على سواء، وهؤلاء جميعًا قد شغلوا أنفسهم بالقضايا والأسئلة التى أشرنا إليها حول النفس، وحاول كل مفكر منهم أن يضع إجابة يرتضيها عن التساؤلات السابقة، قد تتفق هذه الإجابات مع ما قال به أرسطو فى أحيان كثيرة، وفي أحيان أخرى نجد لديهم آراء مخالفة تمامًا لما قال به أرسطو، كما فى موقف ابن رشد من تعريف النفس وعلاقتها بالبدن والقول بخلودها، وكما فى حديث ابن سينا عن النفس، لكن هذه الأسئلة فى معظمها لم تنطلق من حديث القرآن عن النفس.

أما عند الصوفية فإننا نجد الموقف عن النفس وأحوالها وأثر ذلك فى السلوك يختلف عن النظرة الفلسفية تمامًا، فلقد فضل الصوفية الحديث عن الجانب العملى فى النفس، عن أثرها فى السلوك، وعن علاقتها بالقلب بدلًا من علاقتها بالبدن، فلم يشغل الصوفى أنفسهم بالجانب النظرى الفلسفى، ولم تستأثر باهتمامهم تلك الجوانب، وإنما كان شاغلهم الأكبر هو الجانب السلوكى العملى فى حياة الإنسان وعلاقته بربه وعلاقته بغيره من الناس، ولعل ذلك كان سببه اهتمام الصوفية بالمصير الإنسانى والخوف منه أو الخوف عليه؛ ذلك أن الصوفية عندهم أن كل علم ما لم ينتج عملًا أو يرشد سلوكًا فهو عبث ومضيعة للوقت والجهد معًا، والأولى من البحث

النظرى الذى شغل به الفلاسفة هو الاهتمام بالجانب العملى فى السلوك وترشيده، كيف نقومه إذا أعوج وانحرف؟ وكيف ينجو صاحبه من رياح الأهواء وعواصف الشهوات؟ كيف ترجع النفس إلى ربها راضية مرضية خلال طريق طويل مفروش بالمحاسبة والمجاهدة؟ وكيف وكيف؟ هذه القضايا وغيرها كانت الشغل الذى آثر الصوفية أن يشغلوا أنفسهم به بدلًا من البحوث النظرية التى استحوذت على اهتمام الفلاسفة المشائين ومن سلك سلوكهم.

ولعل اهتمام الصوفية بهذا الجانب العملى فى الدراسات النفسية كان سببه اهتمام القرآن الكريم بهذا الجانب ودوره فى السلوك الإنسانى، ولقد ركز الصوفية على الكشف عن عيوب النفس وعللها؛ لكى يتخلصوا منها بالعلاج المناسب لها قبل أن يشغلوها بالسير فى مقامات الطريق، أخذًا بمنهجهم فى ضرورة التخلية قبل التحلية، بمعنى تخلية النفس من عيوبها وتطهيرها من عللها؛ لتصبح مستعدة لأن تتحلى بصفات الكمال.

ولقد لفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن النفس كثيرًا ما يتعارض هواها مع أوامر الله ونواهيه، بل كثيرًا ما تتفق رغبائها مع ما نهى الله عنه، وكثيرًا ما تشغل النفس صاحبها عن محامد الأمور ومكارم الأخلاق؛ لتشغله بسفاسف الأمور والقبيح من الأفعال. وحياة الإنسان كلها ما هى إلا صراع طويل بين نوازع النفس وخطراتها بين هذين النمطين من السلوك، بين الأخذ بمبدأ مخالفة هوى النفس والانصياع لما أمر الله به، ودائمًا كان الصوفية يضعون أمام أعينهم الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [1].

ومكانة الإنسان عند الله ترتبط بكيفية إدارة هذا الصراع، وكيف يحقق المسلم النصر على نفسه أولًا وقبل أن يفكر فى تحقيق النصر على أى طرف آخر، كيف يخضع نفسه وهواها لأوامر الله ونواهيه، علمًا وعملًا، اعتقادًا وسلوكًا؛ حتى يحظى بحظه من الآية الكريمة ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ومن هنا يبدأ حوار الصوفى مع نفسه، وتتسع دائرة هذا الحوار لتشمل عند الصوفية خطرات النفس، وما يحيك فى الصدر من وساوس الشيطان، ومن الإرادات الفاسدة، وكيف يقدر الإنسان على مدافعة هذه النزعات ومقاومتها؛ لأن بداية الطريق الصوفى مع مجاهدة النفس تبدأ من هذه النقطة. تبدأ من الداخل. من الحوار الذاتى للنفس، من الخاطرة الرحمانية أو الشيطانية، من حركة النفس الإرادية نحو الخاطرة إما أن تتحرك إلى الشيطان وإما أن تتحرك إلى الرحمن من نزوعها نحو التفكير فى الطاعة أو التفكير فى المعصية.

ويتواصى الصوفية فيما بينهم على ضرورة البدء من هذه النقطة من الخاطرة، فمن أراد سلوك الطريق فعليه أن يشمر عن ساعديه ويجمع الهمة، وأن يروض نفسه على الدخول فى معركة طويلة قد تمتد لتشمل عمر الإنسان كله، وعليه أن يستعين فى خوض هذه المعركة بربه فى كل موقع من مواقع اللقاء مع النفس وجنودها تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) سورة النازعات: ٤٠ – ٤١.

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾[1]. فالاستعانة بالله على النفس أمر ضرورى لضمان النصر فى المعركة ولتحقيق الظفر بها وقمع هواها، وإذا ما بدأ السالك طريق المجاهدة مستعينًا بالله فحق على الله أن يمده بعونه ونصره. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

وكثيرًا ما نجد لدى الصوفية حديثًا طويلًا عن مشقة الطريق ووعورة السلوك فيه، ولكن هذه المشقة وتلك الوعورة سريعًا ما تتلاشى أمام من اعتصم بالله واستعان به، والتزم طريق الرسول متابعة ومجاهدة، حتى يصبح هوى النفس تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ويكون الأمر والنهى هو هوى النفس وغايتها قولًا وعملًا وحالًا، وتشعر النفس فى تحقيق أوامر الله بلذة الطاعة وحلاوة الاتباع.

ويكاد يجمع الصوفية على أن النفس مصدر لكل شر وسبب لكل عمل سيء يقع من الإنسان أو يقع به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾[4]، وكما قال على لسان

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

(٤) سورة آل عمران: ١٦٥.

امرأة العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [1]، ولقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فى حديثه عن النفس والهوى، وأصبحت هذه القضية حقيقة مقررة عند الصوفية جميعهم، ولعل من هنا نستطيع تفسير قوة المصطلح الصوفى ودقته فى التعبير عن علاقة المسلم بنفسه، أنها علاقة المجاهدة والمراقبة، والمحاسبة، كما نستطيع أن نتلمس تبريرًا معقولًا لسلوك بعض الصوفية وإلزام أنفسهم بما لا يلزم فى كثير من الأحيان وعند الكثير من الأشخاص.

فهذا يصرح بأنه ظل حداد نفسه أربعين عامًا، وهذا اثنتا عشرة سنة، وذاك يحرم على نفسه لونًا معينًا من الطعام أو الشراب، وآخر يدعو الله أن يسلبه شهوة النساء، وآخر يفضل مجاورة الأموات فى قبورهم يأسًا من مجاورة الأحياء فى قصورهم، كل هذه الأنواع من السلوك لا تعدم أن تجد لها تبريرًا من وجهة نظرهم وإن كان لم يأمر بذلك الشرع والعقل.

ولقد وضع كثير من الصوفية حديث القرآن عن النفس أمام أعينهم، وحاولوا أن يستنبطوا منه المنهج الذى أخذوا به فى رصد عيوب النفس وتشخيص عللها، وكيف يحققون لها صفات الكمال، كما فرقوا فى حديثهم عن عيوب النفس بين ما هو ذاتى فيها بمقتضى بشريتها وما هو عارض طارئ عليها.

كما نبَّه الصوفية إلى أن طبيعة النفس وتكوينها على هذا النحو الذى

(١) سورة يوسف: ٥٣.

يشتمل على صفات النقص والكمال معًا يتصل اتصالًا مباشرًا بالحكمة الإلهية من وجود الإنسان فى هذا العالم، ولم يغب عن أذهانهم فى مجاهدتهم أنفسهم أنهم خلقوا للابتلاء كما أشار القرآن إلى هذه القضية فى كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾(٤).

-٢-

وترتبط درجة الإنسان ومكانته عند الله قربًا أو بعدًا بمدى صبره على قضاء الله فى ابتلائه، وقدوة الصوفية فى تحليلهم لهذا الموقف هم الأنبياء وما جربوه من صنوف الابتلاء فى البدن والأهل والولد والمال. ولذلك فإن مجاوزة التجربة الابتلائية للإنسان بنجاح هدف وغاية للصوفية؛ لأنه يتعلق بها ويترتب عليها الجزاء فى الآخرة. ومن هنا فإن الصوفى لا يدخر وسعًا فى العمل على مجاوزة هذه التجربة؛ بل يحشد لها كل طاقاته الروحية والبدنية

(١) سورة الإنسان: ٢.

(٢) سورة الملك: ٢.

(٣) سورة محمد: ٣١.

(٤) سورة العنكبوت: ٢.

معًا، وتكاد تحس ذلك فى تعبير كل منهم عن تجربته، وفى اختيارهم الدقيق لتلك المصطلحات التى تعتبر حكرًا ووقفًا على الدراسات الصوفية، والتى يخاطبون بها القلب مباشرة قبل العقل، بل إن العقل أحيانًا قد لا يجد لها قبولًا فى موازينه أو قوانينه، إن ذلك كله راجع إلى تخوف الصوفية على المصير الإنسانى، وإلى القلق الشديد الذى يعيشونه خوفًا من نتيجة المعركة المحتدمة بينهم وبين أنفسهم، ولا شك أن هذا الإحساس له عند الصوفية بينهم وبين أنفسهم، ولا شك أن هذا الإحساس له عند الصوفية ما يبرره فى حديث القرآن عن النفس ومن أحوال الرسول ﷺ مع نفسه وكثرة الاستعاذة منها ومن شرها، وفى الأحاديث النبوية الكثيرة من ذلك.

فإن القرآن جعل الجنة جزاءً لمن غالب نفسه، فغلبها وخالف هواها، كما جعل النار جزاءً لمن غلبته نفسه، فاتبع هواها، كما جعل اتباع الهوى من خلال الضلال والخلود فى النار. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[2].

وقال لداود عليه السلام: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟

(١) سورة النازعات: ٣٧-٣٩.

(٢) سورة القصص: ٥٠.

(٣) سورة ص: ٢٦.

أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [1]، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [2] ... الخ. والرسول ﷺ كثيرًا ما كان يستعيذ فى دعائه من شر النفس، وكان يقول: «اللَّهُمَّ رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله، لا إله إلا أنت»[3]، «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»[4].

ولقد كان فهم الصوفية لطبيعة النفس على هذا النحو السابق الذى أشار إليه القرآن، وأكدته السنة المطهرة أمر يكاد يكون عامًّا ومتفقًا عليه فيما بينهم، وهذا وجدناه واضحًا فى تراثهم ومؤلفاتهم، تجد ذلك فى حلية الأولياء للأصفهانى، واللمع للسراج، وقوت القلوب للمكى، والإحياء للغزالى، واليواقيت والجواهر للشعرانى، وفى اعتلال القلوب للخرائطى. وحكاه عنهم ابن تيمية وابن القيم فى العديد من مؤلفاتهما، ومن يقرأ هذه المصنفات يدرك تمامًا وحدة الموقف الصوفى من النفس وعلاقتها بصاحبها، وأثر ذلك فى السلوك الإنسانى.

بين السلمى والغزالى:

وهذا أبو حامد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ) وهو من المتأخرين قليلًا عن السلمى قد وضع كتابه (إحياء علوم الدين) وجعله على أربعة أرباع، وجعل

(١) سورة محمد: ١٦.

(٢) سورة محمد: ١٤.

(٣) مسند أبى داود الطيالسى: ٢/٢٠٠.

(٤) السنن الكبرى للبيهقى: ٣/٢٠٤.

الربع الخاص بالمهلكات من هذا الكتاب وقفًا على ذكر عيوب النفس وعللها المهلكة لصاحبها، وقد أتى فى ذكره لهذه العيوب بمعظم ما ذكره السلمى من عيوب النفس فى كتابنا هذا، كما جعل الربع الخاص بالمنجيات شاملًا لأنواع العلاج والدواء المناسب لكل علة من علل النفس التى ذكرها فى ربع المهلكات، ومن المهم أن ننبه هنا إلى أن الغزالى قد أفاض كثيرًا عن سابقيه فى ذكر مهلكات النفس وعيوبها. وبالتالى قد أفاض فى وصف العلاج المناسب لكل علة، ولا نجد بين الصوفية – فيما أعلم – من عرض لهذا الأمر بنظرة أكثر شمولية كما فعل الغزالى، ولعل السبب فى ذلك أنه جاء فى وقت متأخر نسبيًا بعد جيل الرواد الأوائل من كبار الصوفية والزهاد، فأفاد من تراثهم كثيرًا، وأضاف إلى ذلك رؤيته الخاصة إلى النفس، والتى كونها من خلال قراءته للفلسفة وأقوال الحكماء فيها. كل ذلك جعل نظرة الغزالى إلى النفس تأتى أكثر شمولًا من سابقيه.

وإذا كان كتاب الإحياء قد جاء معبرًا عن رأى الغزالى – المتصوف – فى النفس وعللها ودوائها فإنه فى كتبه الأخرى قد عبَّر عن موقفه الفلسفى من النفس وقواها، وعلاقتها بالبدن وخلودها، شأنه فى ذلك شأن الفلاسفة المشائين كالفارابى وابن سينا وابن رشده من بعده، وحين نقرأ كتابه (معارج القدس فى معرفة أحوال النفس) نجد الغزالى الفيلسوف ونجد رأيه الفلسفى فى النفس، الذى يختلف تمامًا عن رأيه الصوفى فى النفس، كما نجده فى الإحياء، وهذا الاختلاف أمر طبيعى من وجهة نظرنا؛ لأنه تابع لاختلاف الرؤية والمنطق فى الموقفين، لكنه فى كل الأحوال لا يؤدى إلى نوع من

التعارض أو التناقض، وإنما يؤدى إلى تكامل النظرة وشمولها.

وإذا كان رأى الغزالى – الفيلسوف – فى النفس بدت عليه علامات التأثر بآراء أرسطو والمدرسة المشائية فإنه كمتصوف قد بدا على رأيه فى النفس علامات التأثر الواضح بكبار الصوفية ورواد الطريق من قبله أمثال أبى طالب المكى فى (قوت القلوب)، وأبو عبد الرحمن السلمى مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا، ولعل القارئ قد يدرك بيسر وسهولة هذا التأثير الواضح من خلال مقارنته بين عيوب النفس ودوائها التى ذكرها السلمى فى كتابنا هذا وبين ما ذكره الغزالى من عيوب النفس ودوائها فى قصيدته (الهائية) المنسوبة إليه، جاء ذلك فى أسلوب شعرى رائع يخاطب الوجدان والعقل معًا، وسوف أضع أمام القارئ بعض مقتطفات من هذه القصيدة الكبيرة واجتزئ منها ما يتصل بذكر عيوب النفس ودوائها للمقارنة بينها وبين ما ذكره السلمى فى هذا الكتاب. يقول الغزالى:

لدىَّ نفـــس أحـــب أنعتهـــا ... لتعرفـــوا نعتهـــا وأســـماها
فاســمع صــفاتى لهــا لعلــك أن ... تفهـــم ذا اللـــب سر معناهـــا
تســعى إلى اللهــو وهــو غايتهــا ... يــا ويلهــا مــا أضر مســعاها
أزجرهـــا وهى لى مخالفـــة ... كـــأننى لســـت مـــن أودَّاهـــا
تنظــر فى عيــب غيرهــا ســفهًا ... وكــم عيــوب لهــا فتنســاها
كــم ظلمتــنى بســوء عشرــتها ... ولــم تــدع لى تقــوى ولا جاهــا
كثـــيرة اللغـــو فى مجالســـها ... قليلـــة الذكـــر فى مصـــلاها
قليلــة الشــكر عنــد نعمتهــا ... ضــعيفة الصــبر عنــد بلواهــا
كثـــيرة المطـــل فى مواعـــدها ... كذوبـــة فى جميـــع دعواهـــا

بصـــيرة بـــالهوى وفتنتـــه ... عميـــة عـــن أمـــور أخراهـــا
نشـــيطة عنـــد وقـــت لذتهـــا ... كاســـلة عنـــد وقـــت ذكراهـــا
نؤومـــة العـــين عـــن عبـــادة مـــن ... أتقـــن تصـــويرها فســـواها
كثـــيرة الأمـــن عنـــد صـــحتها ... عظيمـــة الخـــوف عنـــد ضراهـــا
حليفـــة الكـــبر والريـــاء فقـــد ... أفســـدها كبرهـــا وأطغاهـــا
عظيمـــة المـــدح والثنـــاء لمـــن ... يرفـــع مقـــدارها ومثواهـــا
مطيلـــة الذم بـــالقبح لمـــن ... عرفهـــا قـــدرها وطغياهـــا
ذاكـــرة للـــورى مســـاوئهم ... ناســـية مـــا جنـــاه كفاهـــا
كلمـــا قلـــت نفسى ازدجـــرى ... وراقـــبى فى أمـــورك الله
صـــمَّت عـــن الحـــق وهى ســـامعة ... كـــأننى مـــا أريـــد إياهـــا
لـــو علمـــت بعـــض مـــا له خلقـــت ... أحزنهـــا علمهـــا وبكَّاهـــا
لـــو تعـــرف الله حـــق معرفـــة ... لصـــححت برهـــا وتقواهـــا
لكنهـــا جهلهـــا بخالقهـــا ... أغفلهـــا رشـــدها وألهاهـــا
يـــا ويـــح نفسى والـــويح حـــق لهـــا ... إن صـــدها ربهـــا وأرداهـــا

إلى أن يقول:

قـــد ضـــقت ذرعا بهـــا وأحبســـها ... لـــم أك أعصى الإله لولاهـــا
إن أنـــا حاولـــت طاعـــة فـــترت ... وأظهـــرت وحشـــة وإكراهـــا
صرت مـــع النفـــس فى محاربـــة ... تـــأمرنى بـــالهوى وأنهاهـــا
نحـــن كقـــرنين فى معاركـــة ... أدرع الصـــبر عنـــد لقياهـــا
وهى بجنـــد الهـــوى مبـــارزتي ... وأى صـــبر يطيـــق هيجاهـــا
إن جبنـــت بالقتـــال شـــجعها ... أو ضـــعفت فى اللقـــاء قواهـــا
أصرعهـــا تـــارة وتصرـــعني ... لكـــن لهـــا الســـبق حـــين ألقاهـــا

أحبهـــا وهى لى معاديـــة ... كـــأننى لســـت مـــن أحباهـــا
عـــدوة لا أطيـــق أبغضـــها ... يـــا ليتـــنى أســـتطيع أنســـاها
ســـابحة فى بحـــار فتنتهـــا ... جاثمـــة فى ســـدول ظلماهـــا
أحســـبها إن أبـــت مـــوافقتي ... خـــاسرة دينهـــا ودنياهـــا[1]

ولا غرابة أن يصدر عن الغزالى هذا التصوير الدقيق لخواطر النفس وأحوالها وتصويرها للصراع الدائم بينه وبينها؛ لأن هذه القضية كانت بؤرة الاهتمام عند جميع الصوفية، فمعرفة العيوب وتخلية النفس منها مقدمة عندهم على تحليتها بالفضائل ومكارم الأخلاق، ولذلك فإن الغزالى ينتقل بعد ذكره لهذه العيوب إلى ذكر العلاج من خلال مقارنة رائعة بين نفسه العليلة ونفس الفتى التقى النقى الذى أخذ نفسه بالمجاهدة والمحاسبة، فانتصر على نفسه، وسلمت له نفسه من عللها، وبرئت من أمراضها، فوصل إلى غايته مع ربه. يقول الغزالى:

كـم بـين نفسى ـ وبـين نفـس فـتى ... طهَّرهـــا بـــالتقى ونقَّاهـــا
علَّمهـــا رشـــدها وبصَّرهـــا ... ثـــم بقـــوت الحـــلال غـــذَّاها
أقامهـــا فى الدجى على قـــدم ... فانهملـــت بـــالدموع عيناهـــا
إذا اشـــتهت شـــهوة يعوِّدهـــا ... بخـــوف معبودهـــا فســـلاها
وراضـــها بالصـــيام فانقمعـــت ... بـــالرغم عـــن غيهـــا ومغراهـــا
ذاكـــرة لـــلإله شـــاكرة ... مخلصـــة سرهـــا ونجواهـــا
لله نفـــس امـــرئ موفقـــة ... آوت إلى ربهـــا فآواهـــا

(١) نقلًا عن: الشعر فى تراث الغزالى أ.د/ شوقى جلال ص١٧٥. راجع فى هذه الأبيات كتاب: الإمام الغزالى الذكرى المئوية التاسعة – إصدار جامعة قطر.

تلـــك الـــتى إن دعـــت لحاجتهـــا | أجابهـــــا مسرــــــعا ولباهـــــا
إن بليــــت بـــــالخطوب صــــبرها | أو ســـألت مـــا تريـــد أعطاهـــا
ليســـــت كــــنفس لدى عاصــــية | آمرهـــــا جاهـــــدا وأنهاهـــــا
وهى لأمـــــــر الله عاصـــــــية | ويـــلى لمـــا قـــد جنـــت وويلاهـــا

ويستطيع القارئ أن يدرك وحده المعانى التى يدور حولها موقف السلمى وموقف الغزالى معًا فى إيراد كل منهما لعيوب النفس خلال المقارنة بين ما احتوته هذه القصيدة وما ذكره السلمى فى كتابنا هذا؛ حتى أن بعض الألفاظ قد نجدها هى هى أحيانًا لدى كل منهما.

وليس الغرض من ذكر هذا الموقف للغزالى أن نثبت تأثره بمن سبقه من الصوفية؛ خاصة السلمى. فهذا الأمر قد لا يعنينا فى هذا المقام بقدر ما نريد أن نثبت وحدة الموقف الصوفى فى الحديث عن النفس وعن هواها، ومجاهدتها ومحاسبتها، فلم يشغلوا أنفسهم بالبحوث النظرية عن النفس وقواها، وأصلها وعلاقتها بالبدن واتصالها به، وخلودها، وهل هى كمال أول لجسم طبيعى ذى حياة بالقوة – كما يقول الفلاسفة – أم لا؟ كذلك لم تكن قضية خلود النفس تشكل مجالًا للبحث عندهم؛ لأنها قضية محسومة سابقًا بمنطق الشرع فلا مجال للبحث فيها.

وإنما كان الذى يشغل الصوفية هو المصير الإنسانى والخوف منه أو الخوف عليه، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. وكيف يجتاز المرء التجربة الابتلائية بنجاح، وما هو المنهج السلوكى الأقوم فى رياضة النفس ومجاهدتها؟ وكيف يصل الصوفى خلال هذا المنهج إلى أن يجعل هوى النفس

تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ ليتحقق له كمال الإيمان؟ كما قال الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[1].

ومن هنا نستطيع أن ندرك سبب اختلاف الموقف الصوفى العام عن الموقف الفلسفى فى الحديث عن النفس. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هذا الخلاف لا يعنى بالضرورة أنه خلاف تعارُض أو تناقُض بين الموقفين – الصوفى والفلسفى – إنه من وجهة نظرنا اختلاف تنوع سببه اختلاف النظرة والمنطق، وهذا النوع فى الخلاف يؤدى فى النهاية إلى التكامل فى النظرة الإسلامية الشاملة إلى النفس وفى المحيط الكلى العام للفكر الإسلامى بكل توجهاته؛ حيث تتسع النظرة الكلية؛ لتشمل الجانب النظرى متمثلًا فى موقف الفلاسفة والجانب العملى متمثلًا فى موقف الصوفية.

بل إننا قد نجد النظرتين الفلسفية والعملية – موجدتين لدى المفكر الواحد مثل أبى حامد الغزالى على نحو من التكامل والشمول، فنجد موقفه الفلسفى فى أمثال كتابه (معارج القدس فى معرفة أحوال النفس)، و(المشكاة) أحيانًا، كما نجد الموقف العملى فى (الإحياء) وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى. وذلك على نحو من الوضوح والشمول والتقسيم المنهجى الذى يدل على خبرة كبيرة بالنفس وأحوالها.

وحين يصادفك موقف صوفى لا ترضى عنه فى التحليلات النفسية سواء بالنسبة لذكر العيوب والعلل، أو فى وصف الدواء والعلاج، فينبغى ألا تسارع بإلقاء الاتهامات واللوم على الصوفية، بل من الأولى عندهم أن تبادر باتهام

(١) السنة لأبى عاصم: ١٢/١.

نفسك أولًا؛ لأن هذه الآراء وتلك التحليلات التى لا تجد لها قبولًا لديك هى مبررة من وجهة نظر صاحبها حسب المنطق والمنهج الذى يأخذ به نفسه، والخلاف بينك وبينه فى مثل هذه الحالات – وهى كثيرة – إنما يمكن فى درجة الحس الذوقى أو الرؤية الشاملة للموقف الإنسانى بكامله ودرجة العلاقة بالله قربًا أو بعدًا.

ولعلك قد تجد تفسيرًا مقبولًا لهذا الخلاف فى ذلك الأثر الصوفى الذى يتردد كثيرًا فى مؤلفاتهم «من ذاق عرف» ولا يحتمل الموقف عندهم تفصيلًا أكثر من ذلك. وهذا ما جعل الغزالى يلجأ فى كثير من المواقف إلى تقريب هذه القضية وأمثالها بالأمثلة المحسوسة. فليس وصف الإحساس بلذة الجماع كممارسته، ولا وصف لذة الطعام أو الشراب كتناوله، وإنما تتجسد القضية كلها فى العبارة السابقة «من ذاق عرف» وكل رأى أو موقف قد تحس بغرابته أو عدم قبوله عندك لا تعدم أن تجد له تبريرًا عندهم.. فقد تجد أحيانًا أن بعضهم يلزم نفسه بما لا يلزم لا عقلًا ولا شرعًا من وجهة نظرك، بل قد يصل الأمر ببعضهم من الإلزامات إلى الغلو الممقوت، وحديثهم فى الزهد والورع فى جملته وتفصيلاته، إلى أن القصد والغاية من هذه الإلزامات هو إماتة هوى النفس وقمع شهواتها ورغباتها، وإذلالها خضوعًا لخالقها، وانصياعها لأوامره ونواهيه؛ ليتحد هواها مع أوامر الله ونواهيه تحقيقًا لمعنى عبوديتها لله، وتحقيقًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[1]، وتمام هذه العبودية وكمالها لا يكون إلا

(١) سبق تخريجه.

بالتحرر الكامل من هوى النفس، وكثيرًا ما يجسدون هذا المعنى فى عباراتهم «كمال حريتك فى تمام عبوديتك لله» أو أن تمام الحرية لا يكون إلا بكمال العبودية، أو كما قالوا. ومفهوم الحرية عندهم يأخذ مسارًا مختلفًا فى المضمون والمعنى عما تعارف عليه الناس من معنى لهذه الكلمة، ذلك أن الحرية المقصودة عند الصوفية لا تتعلق بشخص آخر غريب عنك، وإنما المقصود هنا هى نفسك التى ينبغى أن تتحرر من عبوديتك لها وعدم الخضوع لسلطان شهواتها ورغباتها.

النفس كما تحدث القرآن

-١-

وإذا انتقلنا إلى بيان حقيقة النفس كما وضحها القرآن الكريم سوف تنكشف زاويا جديدة تمامًا فى الدراسات النفسية فى الفكر الإسلامى لم تجدها – فيما أعلم – لا فى تراث المدرسة المشائية أو الصوفية على سواء. ويعتبر موقف ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فى تحليلها لخصائص النفس وبيان حقيقتها من أدق الأمور التى تحتاج إلى دراسات تفصيلية لا تتحملها هذه المقدمة. وهناك حقل مهم جدًّا قد أهمله الدارسون لبيان حقيقة النفس وخصائصها. والحقل الذى أقصده هنا هو التراث السلفى الذى يشكل فى نظرته إلى النفس موقفًا متميزًا هو أقرب إلى النظرية المتكاملة منه إلى الآراء المتناثرة التى لا يربطها رابط ولا يجمعها جامع.

ويبدأ الموقف السلفى من النفس من طرح قضية فى شكل سؤال مباشر، ما هو مصدر الشر فى هذا العالم؟ وما هى أسبابه؟ وما علاقة النفس به؟ وكيف يقع من الإنسان؟ وما مدى مسئولية الإنسان عنه؟ انطلاقًا من تأكيد القرآن على ذلك فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[2]، وتكرر ذلك فى القرآن كثيرًا. والشر المقصود هنا ليس هو الشر الطبيعى الكونى كالأمراض والزلازل والبراكين ...

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) الشورى: ٣٠.

الخ، وإنما المقصود هو الشر الخلقى السلوكى الذى يعبر عنه الشرع بلفظ المعصية حينًا أو السيئات أحيانًا[1].

والإجابة على السؤال السابق تكشف لنا عن موقف دقيق وتحليل رائع للنفس الإنسانية وعلاقتها بفعل الشر من الإنسان، وكيف يصدر منها الشر والمعصية؟

فالنفس خلقت أصلًا للتعرف على الخالق من خلال صنعته وحكمته فى هذه الصنعة، وبالتالى عبادته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وإفراده وحده بالعبودية والإلوهية، وأن الله تعالى قد زود النفس بالأدوات اللازمة لها لتحقيق هذا الهدف من وسائل الإدراك الظاهرة والباطنة، والعقل هو الذى يترأس هذه الأدوات، ويكون بمثابة القَيْم عليها والحارس لها، وهذه الأدوات كلها – ومنها العقل – تسمى جنود النفس وعيونها، ووسائل تعرفها على آيات الله فى كونه.

فإذا انقادت النفس لأوامر الله ونواهيه وخضعت لتنفيذ إرادته، وعاشت معنى العبودية لله قولًا وعملًا وحالًا فقد أدت ما عليها وحققت ما خلقت لأجله، فينسجم البدن فى سلوكها العام مع جوارحه خضوعًا لتحقيق هذا المعنى المقصود من النفس، فتسلم النفس من العلل الباطنة، ويسلم البدن من العلل الظاهرة، فتأمن النفس بالله، ويطمئن القلب إلى الله،

(١) انظر تفصيلات أكثر فى: كتابنا قضية الخير والشر لدى مفكرى الإسلام، وكتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله لابن تيمية، رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية، التحفة العراقية فى الأعمال القلبية لابن تيمية، ومدارج السالكين لابن القيم.

فيكون حال اللسان هو الذكر وإن لم ينطق لفظه، وحال القلب هو الإخبات، والإنابة، والتوكل، وفى مثل هذه الحال تكون الولاية لله الحق حالًّا ومقالًا، تكون النفس مشغولة بالله، أملًا وذكرًا وفكرًا، فإذا شغلت بغيره فينبغى أن يكون ذلك من أجل الله وليس من أجل غيره، ويندرج تحت هذا المعنى الأخير كل ممارسات الإنسان اليومية فى حياته العادية، من علاقات اجتماعية وأداء عمله الوظيفى وكسبه قوت يومه وكفايته أهله وأولاده مطالب حياتهم ومعيشتهم. كل هذه الأمور ينبغى أن تندرج تحت هذا المقياس الذى لا يخطئ أبدًا، وهو أن تكون علاقتك بغير الله من أجل الله، فإذا أحببتَ أو كرهتَ، وإذا وصلتَ إنسانًا أو قطعتَ، وإذا أعطيتَ أو منعتَ، وإذا تكلمتَ أو صمتَ، وإذا ذهبتَ أو حضرتَ، فينبغى أن يكون ذلك كله لله ومن أجله. لا من أجل دنيا تصيبها، وإذا كان ذلك مقصودًا فينبغى أن لا يكون مقصودًا لذاته ولا مقصودًا قصد الغايات، وإنما يقصد على أنه الوسيلة التى تؤدى إلى غاية مطلوبة. وبعبارة الأصوليين يقصد قصد الوسائل لا قصد الغايات. وقد جمع الحديث الشريف هذه المعانى كلها فى قوله صلى الله عليه وسلم: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله رسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وحركة النفس نحو فعل الطاعة أو فعل المعصية إنما تبدأ فى داخل النفس مع بداية الحوار الداخلى فيها، أفعل أو لا أفعل، وهذا الحوار الداخلى

(١) صحيح البخارى: ٦/١.

يقوم بالنفس قبل حركة الجوارح نحو ارتكاب الفعل، ومن المعلوم أن النفس الإنسانية من خصائصها الملازمة لها، إنها دائمة الحركة والإرادة، وما دامت النفس حية فهى لابد أن تتحرك وتريد ما تتحرك إليه وتقصده، فالحركة والإرادة من لوازمها، ولا يمكن تصور النفس فارغة من ذلك أبدًا؛ إذ لابد لكل نفس من حركة نحو شيء ما وإرادة شيء ما، ويترتب على لزوم الإرادة لها أن يكون لها مراد تسعى إليه وتقصده بحركتها، يكون مرادًا لها ومقصودًا من سعيها وحركتها، فإذا كان هذا المراد المقصود طاعة لله فهنا تكون حركة النفس فى مسارها الصحيح؛ لأنها حينئذ تكون ساعية فى حركتها لتحقيق وظيفتها التى خلقت من أجلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1]، وإذا ما قويت حركة النفس وتحولت إلى عزيمة خضعت لها الجوارح، وتنقاد لها، فيقع فعل الطاعة، وتكون النفس فى هذه الحالة مشغولة بفعل الطاعة عن فعل المعصية وعن التفكير فيها؛ إذ هى مشغولة بتنفيذ أوامر الله ونواهيه، ومشغولة به عما سواه، وفى هذه الحالة يتفضل الله تعالى على هذه النفس فيمدها بعونه ومدده وتوفيقه، فيقع فعل منها الطاعة بتوفيق من الله وبفعل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [2]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [3]،

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة آل عمران: ٧٣.

(٣) سورة محمد: ١٧.

وحركة النفس نحو الطاعة حبًّا فيها، وإرادة وقصدًا لها كان سببًا فى توفيق الله لها بعونه ومدده.

-٢-

أما إذا لم تتحرك النفس نحو الطاعة فلابد أن تتحرك نحو المعصية؛ لأنها لا تعيش فى فراغ أبدًا كما سبق، فهى لابد أن تشغل بالشيء أو بضده، فإذا لم تشغل بالطاعة شُغلت بالمعصية، ولذلك كان من مأثورات الحسن البصرى ﷺ: إذا لم تشغل نفسك بالطاعة شغلتك هى بالمعصية. وهنا أمور تحتاج إلى شيء من البيان والتفصيل.

١- أن يعلم المرء بأن النفس إذا شُغلت بالتفكير فى الطاعة فقد شُغلت عن التفكير فى المعصية، فلا تفكر فى فعل المعصية إلا إذا كانت خالية من التفكير فى الطاعة.

٢- وإذا لم تشغل النفس بالتفكير فى الطاعة فإنها تصبح مهيأة؛ لأن تفكر فى فعل المعصية.

٣- تفكيرها فى المعصية دليل على أنها لم تكن مشغولة بالتفكير فى الطاعة.

٤- عدم انشغالها بالتفكير فى الطاعة يسمى سيئات النفس، وهو سيئة عدمية يترتب عليها التفكير فى المعصية ووقوعها، وتفكيرها فى فعل المعصية تسمى سيئة وجودية. ولذلك فإن الرسول ﷺ قد استعاذ فى دعائه المشهور من شر نوعين من السيئات.

أ- شرور النفس؛ وهى فراغها من الاشتغال بالطاعة، وهى السيئات العدمية.

ب-سيئات الأعمال؛ وهى فعل المعصية، وهى السيئات الوجودية، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

فالسيئات العدمية تدل على عدم اشتغال النفس بمعانى الطاعة فكرًا وتأملًا، ولما كان الأصل فى حركة النفس أن تكون نحو فعل الطاعة فكرًا وعملًا، ولم يقع ذلك منها، فإنه بذلك أصبحت مستعدة؛ لأن تشغل صاحبها بالمعصية فكرًا ثم فعلًا، فكان فراغها من الاشتغال بالطاعة مقدمة لجعلها مستعدة لأن تكون مشغولة بالمعصية، والمقصود من التأكيد على هذه النقطة التنبيه إلى أن النفس لا تعيش فى فراغ أبدًا، فهى لابد أن تشغل صاحبها إما بالطاعة وإما بالمعصية، ولابد لها من الاشتغال بأحد هذين الضدين.

وأما السيئات الوجودية فهى عبارة عن حركة النفس نحو فعل المعصية بقصد ارتكابها ومباشرتها بالجوارح، وهذه الحركة لا تقوم بالنفس إلا بعد فراغها من الاشتغال بمعانى الطاعة، فتبدأ بالإرادة، وتقوى الإرادة فتتحول إلى عزيمة، وتقوى العزيمة فتتحرك الأعضاء لمباشرة فعل المعصية، فيقع فعل المعصية.

ومن الملاحظ فى هذا التحليل الدقيق أن السيئات العدمية (فراغ النفس من الاشتغال بالطاعة) كان سببًا ضروريًا للسيئات الوجودية التى هى

فعل المعصية.

ومن هنا تستطيع فهم الحديث الشريف: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[1]. فإن وقوع هذه المعاصى من العبد دليل على فراغ قلبه من الاشتغال بمعانى الإيمان؛ لأنه لو كان مشغولًا بمعانى الإيمان لما فكر فى وقوع المعصية، وحين وقعت منه المعصية فإن ذلك دليلًا على أن قلبه لم يكن مشغولًا إلا بالمعصية فارغًا من الاشتغال بالطاعة، وكل هذه المعانى ينبغى أن تكون حاضرة فى القلب، وأن تكون النفس مشغولة دائمًا بالطاعة حالًا ومقالًا وسلوكًا، وينبغى أن يكون ذلك غاية وهدفًا مقصودًا لها، وينبغى ألا يفهم أحد من ذلك أن الموقف السلفى رافض للاشتغال بالدنيا وأسبابها أو العمل على عمارتها، إن هذا أمر بعيد تمامًا عن موقف السلف، وينبغى ألا يفهم أحد ذلك عنهم، إنهم يجعلون الأخذ بالأسباب والعمل على عمارة الدنيا مطلبًا شرعيًا على سبيل الفرض الكفائى، وقد يصل أحيانًا إلى الفرض العينى إذا تعين ذلك على فرد بعينه أو أفراد بعينهم. ولا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يتخلف أحد عن الأخذ بذلك مهما كانت مبرراته، بل يجب على ولى الأمر أن يتدخل بقوة السلطة فى بعض الأحيان ليلزم من يراه بذلك، حتى تستقيم أمور الرعية ويصلح حالها.

---

(١) سنن ابن ماجه: ٢/١٢٩٨.

إن مقصد السلف وغايتهم من وراء هذا التحليل الدقيق لحركة النفس ونزوعها ومن علاقتها بالغير هو توحيد الغاية، ووحدة المقصد من السلوك الإنسانى كله، ووحدة الهدف من العلاقات الاجتماعية جملة وتفصيلًا؛ ليكون الله هو الغاية والقصد من كل حركة، لتستقيم العلاقات الاجتماعية على حبل الله؛ لأن ما كان لله دام واتصل، وليتساقط فى الطريق ما كان لغير الله، من مظاهر النفاق، والرياء، والتزلف الرخيص، وطلب الرياسة والعلو فى الأرض ... الخ؛ لأن ما كان لغير الله انقطع وانفصل. وهذا المعنى هو ما يحرص عليه السلف أن يكون محققًا ودافعًا وأساسًا لعلاقات الناس، توحيد الغاية والقصد فى السلوك؛ ليكون ذلك كله لله.

-٣-

وإذا غاب هذا الهدف عن النفس فتحركت جنودها لغير الله حالًا أو مقالًا أو عملًا؛ فمن هنا فقط تبدأ نقطة الانحراف فى السلوك فى السلوك عن الصراط المستقيم، وعن الهدف المقصود، فتقع المعصية من النفس أو تخلط النفس فى سلوكها عملًا صالحًا بآخر سيئًا، ويحلل الإمام ابن تيمية هذه القضية تحليلًا دقيقًا مبينًا كيف تقع السيئة أو المعصية من النفس فى مواضع متفرقة من تراثه الذى كان لى شرف معايشته قرابة ربع قرن من الزمان، فلقد فصل القول فى ذلك فى (رسالة الحسنة والسيئة) .. المطبوعة ضمن (مجموعة شذرات البلاتين من كلمات سلفنا الصالحين) بتحقيق الشيخ حامد الفقى، كما أشار إليها فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [1] ضمن الجزء الثانى من كتاب (دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية) الذى أنعم الله علىَّ بجمعه وتحقيقه، فضلًا عن كتاب (التوحيد وإخلاص العمل والوجه لله) كما شرحها تلميذه ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) شرحًا مستفيضًا، يتبين خلاله كيف يهجم الشيطان بجنوده – ومن أخطرها جنود الهوى والشهوة – على النفس الإنسانية حتى تقع فى حبائل مكره ووسوسته، فيغتالها الشيطان بالوقوع فى مصايد المعصية، فتغيب بذلك عن مأدبة الله وطاعته.

والقرآن الكريم قد أرشدنا فى الكثير من الآيات أن الحسنة من الله، والسيئة من الإنسان. قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [2].

والله تعالى قد تفضل على الإنسان بأن هداه إلى فعل الحسنات بأسباب كثيرة. فمنها الهداية العامة بأن جعل خلقته مجبولة ومفطورة على حب الخيرات وفعل الحسنات والسعى إليها بمقتضى فطرته التى فطره عليها خالقه، ولا يصرفه عن هذه الهداية الفطرية إلا صارف من خارج نفسه استحوذ عليه وزين له فعل السيئات وترك الحسنات، سواء كان هذا الصارف هوى النفس أو من شياطين الإنس، ولذلك أرشدنا القرآن أن ندعو الله

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة النساء: ٧٩.

ونستعينه فى كل صلاة بقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ والله تعالى قد تفضل على الإنسان بهذه الهادية الفطرية ابتداءً منه سبحانه وبدون سبب تقدم به العبد بين يدى الله، وإنما كان ذلك إحسانًا وتفضلًا منه ابتداءً، فالحسنات وإن وقعت من العبد إلا أن الله سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية إليها والتوفيق للعبد بأن يفعلها بمقتضى فطرته وبلا حول منه ولا قوة وبدون سبب يوجب للعبد حقًّا على الله.

وأما السيئة فهى من نفس الإنسان وبإرادته واختياره وخروجه عن مقتضى فطرته وخضوعه لهواه ومتابعة للشيطان. ولا مناص للعبد ولا حيلة له أمام هوى النفس إلا أن يستعين عليها بالله كما أرشدنا إلى ذلك الرسول ﷺ فى قوله: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

وإذا علم الإنسان أن ما يقع فيه من فعل الحسنات بتوفيق من الله، فيشكر الله عليها، وأن ما يقع منه من السيئات فمن نفسه، فيستغفر الله منها، فيعيش حياته متقلبًا بين عبادة الشكر على النعمة وعبادة الاستغفار من المعصية، فيكون فى كنف الله ورعايته حالًا ومقالًا، وذلك من أصول التعبد لله بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾[1].

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم وجدناها كلها على مبدأ واحد أن السيئات من العبد، فيجب عليها الاستغفار، وأن الحسنات من الله، فيجب عليها الشكر. وأن القرآن لم ينسب السيئة إلى الله أبدًا فى آية من آيات

(١) سورة الفاتحة: ١.

الذكر الحكيم,

وإنما ورد ذكر الشر فى القرآن مقيدًا بقيود محكمة تفيد وقوعه من النفس الإنسانية ولا تنسبه إلى الله أبدًا. وقد ورد ذلك فى آيات ثلاث:

١- الآية الأولى فى سورة الفلق. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ [١].

والشر هنا مضاف إلى المخلوق وليس مضافًا إلى الخالق. سواء اعتبرت (ما) مصدرية على رأى بعض المفسرين، فيكون تقدير الآية من شر خلقه؛ لأن ما تؤول مع ما بعدها بمصدر، ويعرب مضافًا إلى الشر (من شر خلقه) أم اعتبرت (ما) اسم موصول بمعنى الذى على رأى بعض المفسرين فيكون تأويل الآية من شر الذى خلقه, فيكون جملة الصلة مضافة إليه. وفى كلا الإعرابين فإن الشر يضاف فيها إلى المخلوق وليس مضافًا إلى الخالق.

٢- الآية الثانية قوله تعالى حكاية لقول الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾ [٢]. فالفعل (أراد) ذكر فى الآية الكريمة مرة مبنيًا للمجهول فى قولهم: ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وجاء الفعل هنا مبنيًا للمجهول حتى لا يقال أراد الله بهم الشر، فيضاف الشر إلى إرادة الله الدينية. ولذلك حُذف الفاعل وبنى الفعل للمجهول خوفًا من أن يقال: أراد الله الشر. وقيل: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

---

(١) سورة الفلق: ١-٢.

(٢) سورة الجن: ١٠.

وجاء الفعل (أراد) فى المرة الثانية مبينًا للمعلوم صراحة؛ لأن الإرادة هنا متعلقة بالمفعول (رشدا) وهو فعل الخيرات والحسنات، فليتدبر هذا فإنه أمر نافع ومفيد.

٣ – الموضع الثالث أن يدخل الشر أو المعصية فى عموم الخلق، فتذكر ضمن مخلوقات الله، كما فى قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[١] فلفظ (شيء) نكرة، وكلمة (كل) نكرة، وإذا أضيف النكرة (كل) إلى (شيء) أفاد معنى العموم والشمول دلالة على عموم مشيئته سبحانه لكل المخلوقات وشمول إرادته لكل المخلوقات، وإن كان بعضها يشتمل على شر، فإنه شر جزئى إضافى إذا نظرت إليه باعتبار حكمته سبحانه فى خلقه وجدته خيرًا. ومعلوم أن الشر القليل اللازم عن وجود الخير الكثير يعتبر خيرًا. وذلك كسقوط بعض المنازل عند نزول المطر، أو حرق بعض الأشياء بسبب وجود النار، فإن نزول المطر ووجود النار خير كثير إذا قورنا بحرق الثوب وسقوط المنزل.

والمقصد هنا بيان أن القرآن الكريم لم يذكر السيئة أو المعصية أو الشر منسوبًا إلى الله أبدًا، وإنما نسبه إلى الإنسان ونفس الإنسان، وجعل وقوع ذلك منه مناط المسئولية والمحاسبة؛ لأن الله خلق فسوى، وقدر فهدى، وحذر الإنسان من ذلك بإرسال الرسل حتى لا تقام على الله الحجة فى ذلك[٢].

وتختلف حالات النفس الإنسانية من مكايد الشيطان ووسوسته بحسب

---

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) انظر تفصيلات أكثر عن مسئولية الإنسان عن وجود الشر فى العالم: كتابنا: الفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام – الفصل الخاص بذلك.

امتلاء القلب بالإيمان أو الفراغ منه، وبحسب حياته بنور الإيمان أو امتلائه بظلمة الهوى والشهوة، فالقلوب فى هذه الحالة كما يراها ابن القيم على مستويات ثلاثة:

أمراض القلوب:

- ١ -

١- قلب صحيح سليم. وهو الذى امتلأ بنور الإيمان فانشغل بالله عبادة، واستعانة، وإنابة وتوكلًا، ولم يعد فيه متسع لغير الله. وفى معاملاته مع الناس فإنه ينطلق من واقع مراقبته لله، فإن أحب أو كره أعطى أو منع، فإن ذلك كله يكون من أجل الله، ولا يكتفى بذلك حتى يسلم من الانقياد أو التسليم لغير الله ورسوله، فيعقد القلب عقدًا محكمًا على الاقتداء به وحده فى الأقوال والأفعال، أقوال القلب التى هى الاعتقادات، وأقوال اللسان وهى الإخبار عما فى القلب من صحيح الإيمان، وأعمال القلب التى هى صدق المحبة وصدق إرادة وتوابعهما، وأعمال الجوارح وهى انقيادها وتنفيذها لإرادات القلب واعتقاده، وسلامة القلب تقتضى خلوه من كل هوى وإرادة تعارض الإخلاص أو تمنع من الاتباع.

٢- النوع الثانى: قلب ميت قاسٍ. فهو كالحجارة أو أشد منها قسوة، وهو الذى طبع الله عليه بظلمة المعصية، فلا هو حى ولا نور فيه، فلا يعبد ربه ولا يعرفه، بل هو متوقف عند حدود هواه وشهواته،

وليس لله فيه نصيب، بل ملكيته للشيطان وجنوده، إمامه هواه، وقائدة شهوته، والغفلة طابعه، والجهل سائقه، ومخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم قاتل، ومجالسته هلاك، والحذر منه واجب؛ لأنه حينئذ كنافخ الكير، فإما أن تشم منه الرائحة الكريهة، وإما أن يحرقك بناره. كما قال الشاعر:

وأحذر معاشرة الدنيّ فإنها تعدى كما يعدى السليمَ الأجربُ

٣- الثالث: قلب مريض، فيه حياة اختلط فيها نور الإيمان بظلمة المعصية والعمل الصالح بالعمل السيء، فحياته عليلة، ونوره ليس خالصًا، بل فيه غبش وفيه من محبة الله ورسوله، وفيه من حب الشهوات والحرص عليها، وفيه من الطاعة بقدر ما فيه من المعصية، وهو متحير بين هذه وتلك، خاضع فى سلوكه لما له الغلبة عليه، فيه من مادة هلاكه وفيه من مادة حياته، فهذه تدعوه إلى الله وتلك تدعوه إلى الشيطان، وهذه محنة القلب الذى ضعف بعلته عن مقاومتها.

فالقلب الأول سليم واعٍ مخبت لين، والثانى ميت لا حياة له ولا نور فيه، والثالث مريض عليل إما إلى السلامة أدنى وإما إلى الهلاك أدنى.

والقلب السليم صحيح فى نفسه ليس بينه وبين قبول الحق والانقياد له إلا معرفته وإدراكه، وبمجرد إدراكه يقبله ويخضع له. وهذا خلاف القلب الميت الذى لا يقبله، ولا يعرفه، ولا يسعى لإدراكه.

والقلب المريض إن غلبت عليه علته ألحقته بالقلب الميت، وإن غلبت

عليه صحته وسلامته ألحقته بالقلب السليم، فيحيا بالطاعة، ويمتلئ بنور الإيمان.

وبحسب تقلب القلب بين هذه الأحوال الثلاثة يكون موقفه من فتنة الشيطان ومكايده، فما يلقيه الشيطان من وساوس وشكوك على النفس الإنسانية يكون فتنة للقلب العليل والقلب الميت، ويكون قوة للقلب الصحيح السليم من الشبهات؛ لأنه يرد ذلك ويرفضه ويبغضه، ويعلم أن الحق فى خلافه، فيستجيب للحق ويطمئن إليه، ولقد صور الرسول ﷺ ذلك فيما رواه حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»، قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ، «أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ: أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: «لَا بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ» قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادٌّ؟ قَالَ: «شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قَالَ: «مَنْكُوسًا»[1].

والفتن التى تعرض على القلوب من أنواع الشبهات والشكوك، وهى أسباب مرضها، فتنة الغى والضلال، فتنة المعصية والبدع، ففتنة الشهوات

(١) انظر إغاثة اللهفان: ١/١٠- ١٤. والحديث فى صحيح مسلم: ١/١٢٨.

توجب فساد القصد والإرادة، وفتنة الشبهات توجب فساد العلم والاعتقاد؛ خاصة إذا استحكمت فى العقل وتسلطت على حركة النفس.

- ٢ -

ولقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من آية إلى هذه العلل وخطورتها فى حركة النفس وسلوك الجوارح. قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (١) وقال: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ (٢) وقال: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (٣) وقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (٤). وهذا كثير الورود فى القرآن الكريم.

والمرض القلبى هنا إما مرض الشهوات أو مرض الشبهات، وعلى ذلك أكثر المفسرين. وحال القلوب عند نزول الحق عليها وسماعها له يختلف من قلب إلى آخر حسب حاله من الصحة أو المرض. فقلب المؤمن يزداد به إيمانًا ويقينًا وبردًا وسلامًا، وقلب آخر عليل يفتن به كفرًا وجحودًا وإنكارًا، وقلب ثالث يوجب له حيرة فلا يدرى ما المراد وما المقصود به.

وهذه الأحوال الثلاثة للقلوب قد أشار إليها القرآن، ونبه إلى أن موقف

(١) سورة الحج: ٥٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٢.

(٣) سورة الأحزاب: ٦٠.

(٤) سورة البقرة: ١٠.

القلوب من تقبُّل القرآن والإقبال عليه قد يكون فيه شفاء لبعض القلوب، ومرض لبعضها، وحيرة لنمط ثالث.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1] ، وقال: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، وقال سبحانه فى حق الفريق الثانى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3].

وقال فى آية المدثر: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[4].

وعلل النفوس ومرضها يشبه إلى حد كبير علل الأبدان ومرضها، فإن علل البدن سببها خروج البدن عن حال الاعتدال لفساد عرض له، فيتسبب فى فساد حركته بالكلية، أو فساد حركة أعضائه، أو فساد إدراكه الصحيح للأشياء، كما يدرك المريض بالصفراء طعم العسل مرًّا.

كذلك علل النفوس ومرض القلوب، فكما أن الجسم محتاج إلى من

(١) سورة يونس: ٥٧.

(٢) سورة التوبة: ١٤.

(٣) سورة الحج: ٥٣.

(٤) سورة المدثر: ٣١.

يحفظ عليه قوة الحركة والإدراك، كذلك القلب يحتاج إلى من يحفظ عليه قوته حتى تصح إرادته وقصده من جانب، ويدفع عنه الضار من جانب آخر، وحفظ القلب قويًا صحيحًا من الأمراض لا يتم له إلا بإيمانه بخالقه وتعلُّقه به دون سواه.

وحماية القلب من العلل والأمراض المتعلقة به، وجعله نقيًا لا يكون إلا بمخالفة الهوى واجتناب المعاصى، فيفرغ القلب من كل مادة فاسدة تعرض له بالاستغفار والتوبة النصوح، فإذا عرض عليه ما يفسد حاله وعجز عن مدافعته ورفضه ترتَّب على ذلك فساد إدراكه للأمور وفساد إرادته لها. فلا يرى الحق حقًّا؛ بل يرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، ويتبع ذلك فساد الإرادة، فيبغض الحق ولا يفعله، ويحب الباطل ويفعله.

وهذه العلل التى تصيب القلب قد لا يشعر بها صاحبها كمرض الجهل والشهوة، أو مرض الشبهة، وعدم إحساسه بها سببه موافقتها لهوى النفس ورغائبها. مع أنها من أعظم الأمراض ألمًا، لكن القلب لا يحس بها لفساد حاله، بل قد يحس فيها نوعًا من اللذة للموافقة للهوى، كما يجد المريض طعم العسل مرًّا.

وإذا تيقظ القلب وصلح حاله، وزال سبب فساد حاله تجده يحس بوطأة المرض الذى أصيب به، فيحل به هم وغم وحزن وغيظ على ما فرط منه من المعاصى والذنوب، ولابد أن يتأثر البدن بما حل فى القلب من هذه الأمراض، فتظهر على وجه صاحبه أمارات الهم والكآبة والحزن. وقد يعتزل الناس، فيزداد إحساسه بالألم، وقد تغريه المعصية بالرذيلة، فيقع فى معصية أخرى،

فتكون معصيته الثانية عقوبة له على معصيته الأولى إن لم يتداركه الله برحمته.

ومن الملاحظ هنا أن مرض البدن يرتبط بمرض النفس وعللها، بمعنى أن علة النفس قد ينتج عنها مرض البدن، ولكن مرض البدن قد لا ينتج عنه علة النفس، فإذا كان مرض البدن تابعًا لمرض النفس فإن علاجه حينئذ يكون متوقفًا على علاج أمراض النفس أولًا، وبدون علاجها فإن أمراض البدن وأسقامه لا تزال ملازمة له وحالَّة به ما لم يتدارك أسبابها النفسية أولًا. وإذا كانت أمراض البدن قد تعالج بالعقاقير والأدوية أحيانًا، فإنه فى مثل هذه الحال تحتاج إلى نوع آخر من العلاج الذى يتعلق بعلل النفس وأمراضها، فإن هذه لا تزول بالعقاقير بقدر ما تزول بالأدوية الإيمانية النبوية التى تقتضى النظر فى أسباب هذه العلة، هل هى من باب الشهوات أو من باب الشكوك.

فإذا كانت علته من باب الشهوات فذلك سببه ضعف الإيمان وله علاجه.

وإن كان من باب الشبهات والشكوك فذلك ضعف فى اليقين وله علاجه.

فإن مرض الشهوة لا يزول إلا بملازمة الاتباع أمرًاو نهيًا، وعرض أحوال صاحبه على الشريعة حالًا ومقالًا؛ ليسارع بتعاطى العلاج الشرعى الذى قد يكون مخالفًا للهوى، مناقضًا للشهوة، فإن عالج حاله بالأمر الشرعى شفى من علته وبرئ من سقمه، وإن عالجه بالمزيد من الشهوات كان

كمن عالج حال العاشق بمواقعة معشوقه، فإنه بذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضًا أخرى أشق وأصعب فى علاجها، ولعل كثرة الملازمة للصالحين وأهل العلم المخلصين الذاكرين لله مفتاح صحيح لعلاج هذه الأسقام والبرء منها.

وكذلك إذا كانت علة النفس سببها الشك أو الشبه فإنه لا تزول إلا بتحصيل العلم النافع المؤدى إلى اليقين، الذى يجلب للقلب برد الأمان وانشراح الصدر، فتسكن النفس، ويطمئن القلب.

وحياة القلب وصلاح أحواله موقوف على درجة انتفاعه بدواء القرآن وتناوله. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾[2]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3].

فجعل حياة القلب معلقة بدرجة استجابته لدعوة الرسول ﷺ، وجعل موت القلب وهلاكه معلقًا بحرمان القلب من ذلك النور ومن تلك الحياة.

والله سبحانه وتعالى تفضل على كل إنسان، فجعل فيه قوتين بهما يكمل صلاحه وتستقيم أموره.

١- قوة الإدراك يميز بها بين الحق والباطل، والضار والنافع، والخير والشر.

---

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) سورة يس: ٧٠.

(٣) سورة الأنفال: ٢٤.

٢- قوة الإرادة والحب، أو البغض والكره.

وكمال النفس وحياة القلب إنما يكون باستعمال هاتين القوتين فى تحقيق مصالح الإنسان ومنافعه، فيستعمل قوة الإدراك فى إدراك الحق ومعرفته، وقوة الإرادة فى قصده وطلبه والسعى إليه وتحقيقه، ومن استعملهما فى غير ذلك فإنه يكون قد استبدل الباطل بالحق، والضار بالنافع، وحينئذ يكون قد وضعهما فى غير ما خلقتا له، ويترتب على ذلك نشأة علل النفس ومرض القلب، فمن لم يعرف الحق فهو ضالٌّ، ومن عرفه ولم يرده ولم يقصده فهو مغضوب عليه. وفى كلتا الحالتين فقد عرض القلب لأسباب المرض، بل قد أصابه إما بمرض الشهوة أو بمرض الشك والشبهات.

ولقد أقسم الله فى سورة العصر أن كل إنسان فى خسران إذا لم يوظف هاتين القوتين فيما خلقتا له. قال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[1]. فجعل كمال القوة العلمية فى الإيمان بالله، وجعل كمال الإرادة فى العمل الصالح. فجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الإيمان نتيجة النظر الصحيح، والعمل نتيجة الإرادة الصادقة.

خصائص النفس:

ومما ينبغى أن يعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان فى النفس أبدًا مادامت النفس حية الحياة المادية لها.. تأكل وتشرب وتحس، وتنمو وتزيد،

(١) سورة العصر: ١-٣.

فلابد لها من علم وإرادة، فإن شغلت نفسها بعلم الحق وإرادته فلابد أن تشغل بعلم الباطل وإرادته؛ لأنها لا تعيش فى فراغ أبدًا، فإن لم تشغل بالحق شغلت بالباطل، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك. ولكن هنا أمور تتعلق بعلل النفس وأسبابها إذا هى أعرضت عن علم الحق وإرادته أو شغلت نفسها بضد ذلك من الإرادات الفاسدة والأعمال السيئة لابد من بيانها:

١- أن النفوس بطبعها فقيرة بذاتها غنية بربها، والفقر صفة ذاتية فيها، فهى محتاجة إلى من يحقق نفعها، ويدفع عنها ما يضرها، فتريده وتقصده، وهذا لا يكون إلا الله؛ لأن الله هو الغنى المطلق. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ ﴾[1]، وإذا تعلقت بغير الله فينبغى أن يكون ذلك من أجله كوسيلة موصلة إليه، فالذى يجلب النفع ويدفع الضر هو الله، وكذلك يجب أن يكون الله هو المقصود المدعو المطلوب الذى يراد لذاته؛ لأنه النافع والمعين على تحصيل النافع، ولأنه الذى يدفع الضر، وهو المعين على دفع الضر، فينبغى أن يكون هو المعبود والمحبوب والمقصود تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[2] فتتوحد مقاصد النفس فيه لذاته؛ حتى لا تتوزعها الأهواء والرغبات، فتصاب بالعلل وتشقى بالأمراض، وقد جمع القرآن هذه المعانى فى آيات كثيرة.

---

(١) سورة فاطر: ١٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [1] ولذلك أمرنا بأن نتوكل عليه وحده ونقصده وحده قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [2]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [3]، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [4]، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [5]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [6].

٢- إن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته، ومن عبادته معرفته، ومعرفة أمره ونهيه، والوقوف عند حدود الأمر والنهى بمعرفة المقاصد والعلل من الأوامر والنواهى؛ ليصل إلى تحقيق معنى استخلافه فى الأرض وعمارتها، وإذا عرف الإنسان ذلك وقصد إلى تحقيقه اطمئن قلبه وسكنت نفسه، واستعان بالله فى قضاء حوائجه إيمانًا بفقره وحاجته إلى الله، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [7].

---

(١) سورة النمل: ٦٢.

(٢) سورة هود: ١٢٣.

(٣) سورة الشورى: ١٠.

(٤) سورة الرعد: ٣٠.

(٥) سورة الممتحنة: ٦٠.

(٦) سورة الفاتحة: ٥.

(٧) سورة فاطر: ١٥.

وعلم الإنسان بفقره وحاجته إلى الله يقوده دائمًا إلى الإحساس بمعيته سبحانه له فى كل حال، فيأنس به، وينيب إليه، ويطمئن بذكره، وهذا هو غذاء النفس، ومصدر قوتها وعزتها، تأنس بالله، فيلقى الله هيبتها فى قلوب الناس، وتكون أوامر الله ونواهيه غذاءها كالطعام والشراب بالنسبة للبدن، فتكون الصلاة قرة العين، ولذة القلب، ونعيم الروح، وسرورها، وتجد فى تنفيذ ذلك كله سعادتها وشفاء سقمها، فتستغنى بالله عن غيره، وبما عند الله عما عند غيره، وكلما كان المرء أكثر خشية لله كان الناس أكثر خشية له.

٣- إن من أسباب علل النفوس ومرضها الجهل بالأسباب وخلط الأسباب بالغايات، فتقصد النفس إلى الأسباب كأنها غاياتها وتتعامل معها كما تتعامل مع الغايات فى ذاتها. وهذا خطأ، فإن النفس إذا قصدت المخلوق فينبغى أن تعلم أن هذا القصد هو قصد الوسائل وليس قصد الغايات، فإن العبد ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع، وتعلق العبد بما سوى الله لغير الله مضرة عليه من كل وجه. فإذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته غير مستعين بالله على تحقيق طاعة أو دفع مضرة كان ضرره على النفس أكثر من نفعه، كما إذا تناول الجائع طعامًا أو شرابًا أكثر من حاجته فإن ذلك يضره. كذلك الأمر بالنسبة لتعلق القلب بغير الله لغير الله، فينبغى أن يكون ذلك على قدر تعلق الإنسان

بالوسيلة التى تؤدى به إلى الغاية والمقصد، فإذا تعلق القلب بغير الله وأحبه حبًّا تامًّا بحيث ملك عليه أعضاءه لغير الله فلابد للقلب أن يتعذب به أكثر مما ينتفع به؛ لأنه إما أن يسأمه ويملَّه، أو يفارقه، فالضرر حاصل له إن وجده أو فقده، فإن فقده تعذب بفواته وتألم به، كما يتعذب العشاق بفقد عشاقهم، وإن وجد على الدوام سأمه واستذله واسترقه. وهذا أمر معلوم بالمشاهدة والاستقراء فى أحوال الناس. ولعل من أبلغ أنواع العذاب فى الدنيا تشتيت الشمل وتفريق القلب وتوزع الهمة، فإن ذلك كله يورث الكمد والهم والكلال التى تظهر آثارها على البدن، وإن كانت هى ساكنة فى القلب وحالَّة به فإنها سرعان ما تظهر آثارها عند وجود دواعيها.

٤- إن النفس إذا علقت رجاءها بغير الله اعتمادًا على المخلوق أو توكلًا عليه (قصدًا أو رغبة أو رهبة) فإن ذلك يجلب له الضرر لا محالة؛ لأنه إن حقق له قصده استذله واسترقه، وإن لم يحقق له قصده خذله وأهانه. وهذا أمر معلوم أيضًا باستقراء أحوال الناس. ما علق عبد رجاءه بغير الله إلا خاب أمله من تلك الجهة إما باستذلاله واسترقاقه إن قضيت حاجته، وإما بإهانته وخذلانه إذا لم تقض حاجته.

أما تعلق النفوس بالله عبادة واستعانة وتوكلًا فإن الله غنى حميد. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر لا لجلب

منفعة ولا لدفع مضرة؛ بل رحمة وإحسانًا منه إلى عباده، لا لشيء إلا لأنه محسن والإحسان من صفاته، والمحسن من أسمائه، أما تعلُّق المخلوق بالمخلوق فلا يكون ذلك إلا لمنفعة له عنده، فهم لا ينفعون ولا يضرون إلا بتيسير الله، ولا يقصدون ذلك لحظوظهم من العبد، فإنه إذا أحبوه طلبوا منه العوض من محبته، سواء أحبوه لشجاعته أو رياسته أو جاهه بينهم، فهو يتعلق بمحبوبه لينال منفعته من تلك المحبة، حتى تعلق العاشق بمعشوقه إنما لينال مفعته منه، ودائمًا فإن قصد الحصول على العوض مقدم ومطلوب فى تعلق المخلوق بالمخلوق إذا لم يكن القصد هو الله.

وإذا تيقنت النفوس من هذه القضية اتضح أمامها أن أحدًا من الناس لا يقصدك لينفعك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك ومنك، وقد يترتب على ذلك نوع من الضرر بك إذا لم يكن عادلًا فى قصده، فإذا قصدته النفس وتعلقت به فقد قصدت من ضره أقرب من نفعه، والله سبحانه وتعالى يريدك لك، ويأمرك لمنفعتك لا لنفع له عندك – حاشا لله – فمنفعته لك بلا مضرة لا فى القصد ولا فى الفعل. وملاحظة هذه الأمور الدقيقة تمنع النفس أن تتعلق أو تقصد أو تطلب منفعة من غير الله.

وطريقة القرآن الكريم تدور كلها حول توجيه القلوب إلى مسبب الأسباب ورجائه وقصده والاستعانة به وأن تلجأ إلى الله فى طلب ما عند الناس، فتطلب ما عند الناس بالله، ولا تطلب ما عند الله بالناس.

ولو تأملت هذا الأمر لوجدت أن الإنسان فى كثير من الأحوال لا يقصد منفعة الإنسان إلا لمنفعة له يريدها بالقصد الأول، فهو لا يقصد منفعة

أخيه بالقصد الأول، وإنما يقصد منفعته هو أولًا، فهو يقصد منفعته بك، ولا يريدك لذاتك حبًّا فيك، وإنما يريدك له إلا من رحم ربي، والمطلوب أن يقضى حوائج الناس طمعًا فيما عند الله وليس فيما عند الناس. أما الاستعانة بالله فإن الله غنى بذاته يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك بلا مضرة وبلا مقابل، بل إحسان منه سبحانه وتفضل عليك.

وملاحظة هذه القضية تجعل الإنسان مؤمنًا بتكريم الله له موقنًا بذلك، فيستمد عزته من عزة الله، فلا يقصد غير الله، ولا يذل إلا له تعبدًا وتقربًا واستعانة به على ما عند الناس.

وموقف الإنسان يدور بين الأحوال الآتية:

١- أن يعبد الله ويستعينه على تحقيق المطلوب ودفع المكروه. وهذا حال المتقين.

٢- أن لا يعبده ولا يستعينه. وهذا حال من لا يؤمن به ولا يرجوه.

٣- أن يعبده ويستعينه، فيلزم الاتباع لأوامر الشرع ونواهيه، ويعظم حرمات الله ويقيم شعائره، ولكنه يبدو مغلوبًا مقهورًا فى نفسه أمام قضاء الله وقدره، فيجزع عند نزول القضاء غير عارف بالسبل الموصلة إلى الطريق المستقيم عند نزول القضاء، وهو الرضا والاستعانة بالله والدعاء والصبر، وكلاها عبادة مقصودة لله، يرفع الله بها الدرجات، ويكفر بها السيئات.

والقسم الثالث يغلب عليه الاستعانة بالله والتوكل عليه وإظهار الخضوع والرضا بقضاء الله وقدره وكلماته الكونية، ولكن يكون منقوصًا

من جهة العبادة والإخلاص، فلا يكون مقصوده إخلاص الدين كله لله بل يكون مقصوده الوصول إلى نوع سلطان فى الدنيا يحقق به وجاهة اجتماعية أو نوع سلطان دينى بين أقرانه، وهذا كله يعوق طريق السالك ويعوق الوصول إلى المقصد الشرعى. وهذا نوع من الجهل والظلم للنفس قد يسلكه بعض المتصوفة وأدعياء الولاية الذين يشهدون قدر الله وقضاءه ولا يشهدون أوامر الله ونواهيه، ويشهدون كلمات الله الكونية وقيام الأكوان كلها بالله وفقرها الذاتى إليه وقيوميته سبحانه وتعالى عليها، ولا يشهدون ما أمر الله به وما نهى عنه وما يحبه وما يرضاه ولا ما يكرهه ويبغضه. ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على أصحاب هذه الأحوال بقوله: "ولهذا يكثر فى هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع انحلاله عن بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر، وإذا أوغل الرجل منهم دخل فى الإباحة والانحلال، وربما صعد إلى فساد التوحيد، فيخرج إلى الاتحاد والحلول[1].

ويشير إلى أن ابن القيم: "مقام إياك نعبد وإياك نستعين يقتضى من الإنسان أن يسلم الوجه لله عبادة واستعانة وإنابة وتوكلًا عليه تحقيقًا لمفهوم العبادة وإخلاصها لله من جانب، ومفهوم الاستعانة به وحسن التوكل من جانب آخر، وقد تناول العلماء من الصوفية تفصيل القول فى هذا المقام لأهميته فى توضيح العلاقة بين العبد وربه التى أشار إليها القرآن فى هذه الآية؛ لأن مفهوم العبادة والتوكل ينبئ أنها من أعمال القلوب التى قد يظهر أثرها على الجوارح.

(١) انظر: كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعبادة لله بتحقيقنا ص٦٨-٦٩.

فإياك نعبد يقتضى الإخلاص لله فى العبادة وهذا عمل قلبى, وإياك نستعين يقتضى حسن التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب التى نصبها الشرع. وهذا من أعمال القلوب.

وحسن التوكل يقتضى اليقين القلبى الذى لا ريب فيه بأنه الضار والنافع والمعطى والمانع والمعين على كشف الضر إذا نزل هو الله وليس غيره. وهذا من أعمال القلوب. ومن هنا نجد أئمة الصوفية وكبار العارفين بالله تناولوا هذا المقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بالتحليل والشرح ليبيِّنوا أن عمل الجوارح ما لم يكن له رصيد من عمل القلب فهو أدخل فى باب الرياء والنفاق ولا قيمة له فى ميزان الشرع، وكل من التوكل واليقين يعبران عن استقامة الإنسان على الطريق الذى رسمه الشارع اعتقادًا وسلوكًا، قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [1]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2].

وفى الحديث الصحيح عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ – قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ»[3]. فإياك نعبد تعنى الاستقامة

(١) سورة هود: ١١٢.

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان.

على الطريق، وإياك نستعين تعنى حسن التوكل المؤسس على اليقين بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا. والاستقامة كلمة جامعة لمقاصد الدين أصوله وفروعه من العقائد والعبادات والمعاملات، فهى كما يقول ابن القيم[1]: "آخذه بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والإخلاص، وهى تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، والمقاصد والغايات. والاستقامة فيها أن تكون لله، وبالله، وعلى أمر الله، والمطلوب من المسلم أن يكون صاحب الاستقامة، لا طالبًا للكرامة؛ لأن النفس تسعى لتحصيل الكرامة طلبًا للعزة والكبرياء وأصول الدين وفروعه مؤسسة على هذين الأصلين الجامعين العبادة والاستعانة، فالتوكل الخالص نصف الدين وهو الاستعانة، والعبادة الصادقة نصفه الآخر، وهى مؤسسة على اليقين.

والتوكل الشرعى هو حسن الأخذ بالأسباب؛ لأن ترك الأخذ بالأسباب طعن فى العقل، وإنكار للسنن الإلهية، والاعتماد على الأسباب كلية طعن فى الشرع وطعن فى اليقين، والشرع قد أمر بالجمع بينهما، فالتوكل حال النبى ﷺ، والأخذ بالأسباب سنته وشرعه.

وعلى قدر يقين المرء بالله أو على قدر إيمانه بقضاء الله وقدره، وعلى قدر حسن ظنه بربه يكون توكله على الله، ورجاؤه فى الله، وتفويضه الأمر إلى الله وأخذه بالأسباب الكونية التى شرعها الله كوسائل موصلة للغايات

(١) انظر مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين ٩٨/٣ تحقيق الدكتور/ عبد الحميد مدكور حيث تكلم ابن القيم فى هذا الشأن كلامًا نفيسًا، فينبغى أن ينتفع به علماء النفس والمربون.

ومحققة للمقاصد.

وقوة اليقين فى النفس تخلق فيها الثقة المطلقة فيما عند الله وأن ما عند الله لا سبيل إليه إلا بما أمر الله، وسلوك المسلم واستقامته على الطريق هو السبيل إلى ذلك، فاليقين كالروح فى الجسد الحى، ولا حياة للجسد إلا بالروح يحيا بها ويتحرك بها، وكذلك اليقين من الإيمان فلا إيمان بلا يقين، وهنا تتفاوت درجات الناس قوة وضعفًا، وقوة اليقين بالله هو باب الإمامة فى الدين. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

واليقين بالله هو قطب الرحى لكل أعمال القلوب، من التوكل والإنابة والإخلاص، وعليه مدار الإرادات والنوايا المتعلقة بالأعمال ومقاصدها، والله سبحانه جعل الرَّوْح والفرح والرضا فى اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط، ومن رضى بالله عن يقين كان له الرضا، ومن سخط كان له السخط، ومتى سكن اليقين القلب امتلأ القلب به فرحًا وسرورًا، وأشرقت بشائر الرضا والقبول، وابتعد عنه كل هم وحزن وغم، فيمتلئ القلب بمحبة الله، ومحبة أهل الله وأوليائه شكرًا لله وتوكلًا عليه وإنابة له.

ولما كان الإنسان ليس له من نفسه خير أصلًا، فليس لديه خير لغيره من باب أولى، ولذلك فإن استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة العدم بالعدم؛

(١) سورة السجدة: ٢٤.

لأن (ما بكم من نعمة فمن الله) والخير كله بيديه، ونحن منه وإليه، كما جاء فى دعاء سيد الاستغفار بصحيح البخارى: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ... »[1].

وهذا لا يعنى حمل النفس على جفوة الناس، أو التجهم لهم، وترك الإحسان إليهم، وإنما المطلوب أن يكون إحسانك إلى الناس من أجل الله لا لرجاء منفعة منهم، وأن تكون علاقتك بهم من أجل الله، فكما لا تعلَّق رجاءك بهم فلا يكون فى القلب خوف منهم، فتعلم أنهم لن ينفعوك إلا بالله ولا يضرونك إلا بأمره.

فخف الله فيهم ولا تخفهم مع الله.

وارجُ الله بالإحسان إليهم ولا ترجُهم مع الله.

وأحبهم لحب الله ولا تحبهم مع الله.

وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به.

وأحسن إليهم بقدر إحسان الله إليك.

وإذا كان القصد فى كل ذلك هو الله توحدت مقاصد النفس وغاياتها وازداد يقينها بالله، وعلمت أن ما أصابها من الخلق لم يكن ليخطئها، وأن

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار، ومسلم فى صحيحع باب ما يفتتح به الصلاة.

ما أخطأها لم يكن ليصيبها، فلا تفزع عند المصائب، ولا تبطر عند النعم[1].

علاج مرض الشهوة والشبهة:

سبق أن بينا أن أخطر أمراض النفس هى مرض الشبهة والشهوة؛ إذ فيهما جميع الأمراض كلها، ويتفق الصوفية مع السلف فى أن هذين المرضين قد تضمن القرآن الكريم شفاء كل منهما، وأرشد إليه، وجعله شفاءً لما فى الصدور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2].

١- أما مرض الشبهات والشكوك فإن القرآن الكريم قد اشتمل على البراهين القطعية التى يزول بها كل شك، وتنمحى معها كل شبهة تفسد العلم الصحيح والإدراك السليم، بحيث يتاح للعقل أن يتصور الأشياء تصورًا حقيقيًا، فيراها على ما هى عليه عند صحة الدليل واستقامة البرهان، وذلك شامل وعام فى براهين القرآن على الغيبيات ومطالبها، كالتوحيد، والنبوة، واليوم الآخر.

---

(١) لقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية القول فى تعلُّق النفس بغير الله وما يترتب على ذلك من فساد المقصد وفساد العبودية. انظر كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله – تحقيقنا – ص٢٠ وما بعدها.

(٢) سورة يونس: ٥٧.

وكذلك الشأن فى أدلته على صحة أحكامه وشريعته المتضمنة صلاح أمر المسلم إن هو أخذ بها دينًا ودنيا، وذلك فى أتم عبارة وأيسر منهج يتلاءم مع فطر الناس وعقولهم، بعيدًا عن تعقيدات الفلاسفة وجدال المتكلمين وجفاف عبارتهم، ولا يتطلب ذلك من المسلم إلا الوقوف على معانى القرآن وفهمها، ومعرفة المراد منها ومن مأثورات الرسول ﷺ وصحابته، ومما صح عند العقول الصريحة منها. فمن أبصره الله بمراده، ورزقه معرفة معانيه رأى الحق والباطل بعين بصيرته، كما يرى أحدنا الأبيض والأسود بعين بصره فى واضحة النهار، وأدرك حقيقة الفرق بين قطعية البرهان القرآنى فى دلالته على مطلوبه، وظنون الفلاسفة والمتكلمين التى لا تغنى فى مثل هذا الشأن شيئًا، وعلم أن ما صح عند الفلاسفة والمتكلمين قد احتواه القرآن ووضحه بأكمل بيان وأدق عبارة وأحسن تفسير، خاليًا من التطويل والتعقيد وتكلُّف الدليل وطول المقدمات.

بل إن منهجهم ودلائلهم على مسائلهم قد يكون الضرر فيها أكثر من النفع، والشك معها أقرب من اليقين. كما قال الشاعر:

يحللون بزعـــم منهم عقـدًا

وبالذى وضعوه قد زادت العقد

والكلام فى هذا الشأن يطول. ومن أراد المزيد من ذلك فليراجعها فى مظانها – خاصة ما كتبه ابن تيمية فى (درء تعارض العقل والنقل)، وابن القيم فى معظم مؤلفاته ومن قبلهما ابن رشد فى (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) ... الخ، وما قمنا به من مختارات لنصوص تمثل المنهج العقلى عند

السلف فى سلسلة تقريب التراث من درء التعارض[1].

٢- أما مرض الشهوات. فإنه من أشد الأمراض وطأة على النفس، خاصة إذا زادت العلة واستحكم الداء، ولم تكن هناك مقاومة من جنس ما يعالج به هذا المرض، فإن القرآن قد تضمن شفاء هذا المرض بما فيه وما احتواه من صنوف الحكمة المؤثرة، والموعظة الحسنة بالترهيب والترغيب، والترغيب فيما عند الله، والترهيب من حبائل الشيطان ومتابعة هوى النفس، ولقد أكثر القرآن من ذكر الأمثال والقصص للعبرة والتبصير، سواء فى ذلك ما يتعلق منها بقصص الأفراد أو قصص الأمم السابقين، فيرغب القلب السليم – إذا أبصر – فيما ينفعه فى معاشه ومعاده، ويزهد فيما يضره، فيصير القلب مع مداومته على قراءة القرآن محبًا للرشد راغبًا فيه، راغبًا عن الغى مبغضًا له، متأملًا ما يسوقه القرآن من قصص الأفراد وسيرتهم؛ كفرعون وهامان وقارون، أو قصة أصحاب الجنة التى ذكرها القرآن فى سورة (القلم) وقصص الشعوب والأمم المختلفة؛ كقصص بنى إسرائيل، وأصحاب مدين، وثمود، وعاد وغيرهم ممن قصَّ القرآن علينا سيرتهم، ويعلم أن سنة الله لا تتخلف إذا وجد المقتضى وارتفع المانع، سواء فى ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى الأمم. فإذا ما قرأ القرآن متأملًا سنة الله فى كونه مع الفرد ومع الأمم، فإن القلب السليم من شأنه أن يستفيد الدرس من القضية ويعى العبرة من الدرس. ولذلك فإن القرآن يلفت النظر إلى ضرورة الإفادة من قراءة هذه القصص وتلك الدروس بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

(١) صدر ذلك الكتاب فى سلسلة تقريب التراث عن مؤسسة الأهرام بالقاهرة سنة ١٩٨٥م.

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾[3]. وهذا كثير الورود فى القرآن.

والذى يقرأ القرآن متأملًا بعين بصيرته هذه الدروس وتلك العبر فإن من شأنه أن يزيل عن القلب وطأة الإحساس بالشهوة التى تفسد عليه إرادته، فيسلم القلب، وتصح منه الإرادة، ويعود إلى فطرته السليمة التى فطره الله عليها، فتصح منه أفعاله الإرادية تبعًا لسلامة الإرادة منه، فلا يَقْبل إلا الحق، ولا يُقْبل إلا على فعل ما هو حق, فيزكو القلب بالقرآن كما يزكو البدن بالغذاء الطيب، وتكون قراءة القرآن لمن هذا حاله كتناول الدواء لمن به مرض السقم.

وهناك كثير من الأمور المهمة التى لفت القرآن نظرنا إليها كى يسلم القلب من أمراضه، وحتى تصح النفس من عللها، والتى نبه إليها الصوفية – ومنهم السلمى – كما أشار إليها كبار السلف؛ كابن تيمية وابن القيم. ومن أهمها:

١- غض النظر عن محارم الله؛ حيث جعل القرآن غض البصر وحفظ

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) سورة الروم: ٩.

(٣) سورة الروم: ٣٠.

الفرج سببًا فى زكاة النفس وطهارتها من الأدران، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾[1].

٢-الإحساس بحلاوة الإيمان ولذته، التى هى أطيب وألذ مما غض بصره عنه، إذا كان ذلك من أجل الله، فإن من ترك شيئًا عوضه الله عز وجل خيرًا منه، والعين مولعة بالنظر إلى الجميل من النساء والصور الجميلة، وهى رائدة القلب وسفير له، فإذا نقلت إليه حسن ما نظرته تحرك القلب شوقًا إليه، وهامت النفس تولعًا به، وكثيرًا ما يتعب القلب وتتعب العين معًا، كما قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا
لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

٣- فإذا غض المرء بصره خشية وخوفًا من الله استراح القلب من كلفة الطلب، والنظرة بريد المحبة والعشق كما يقولون، ولا يبتلى بهذا القلب إلا القلب الفارغ من حب الله والإخلاص له؛ لأن القلب لابد له من محبوب يتعلق به – كما سبق بيان ذلك – فمن لم يتعلق بحب الله تعلق بحب غيره، فيذل له، ويصبح ذلك معبوده ومعشوقه.

٤- ومن فوائد غض البصر أنه يورث القلب نورًا تصح به فراسته وراؤه،

(١) سورة النور: ٣٠.

كما قال الكرمانى: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال، لم تخطئ فراسته؛ لأنه حينئذ يرى بنور الله، ولما غض بصره عن المحارم عوَّضه الله خيرًا منه، بأن أطلق الله له نور بصيرته وقلبه، فانكشف له ما ستره عن غيره، ورأى بالبصيرة ما حجبه عن البصر، وأعطاه الله متعة عما أطلق بصره على محارم الله وعورات الناس، ذلك أن القلب كالمرآة المجلوة التى تنطبع فيها صور الأشياء على ما هى عليه، فإذا تعرض القلب لمرض الهوى والشهوة صدأ، ولم تنطبع عليه صور المعلومات. ولذلك قيل: اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله.

٥- ومن فوائد غض البصر أنه يرث القلب قوة وثباته جأش، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أنعم عليه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين سلطان القوة وسلطان الحجة معًا، ولذلك جاء فى الأثر: «إن الذى يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله» أما الخاضع لهوى النفس فإن فيه من الذلة والمهانة والخور بقدر ما فيه من متابعة الهوى، وذلك لأن المعصية تورث ذلًّا، والطاعة تورث عزًّا. والقرآن الكريم قد أمر بغض البصر للمؤمنين والمؤمنات، فإذا امتثل المؤمن الأمر بالطاعة وغض بصره فإن ذلك قد يجره إلى طاعة بعدها جزاءً عليها وثوابًا لها، وإذا لم يغض المؤمن بصره فإن ذلك قد يقوده إلى معصية أخرى عقابًا على هذه المعصية. كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ

سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[1] . والجزاء من جنس العمل.

من علامات النفوس المريضة:

تكلم الصوفية كذلك عن أمارات النفس والقلب المريض وعلامات النفوس العليلة، وذلك من خلال مقارنة النفس ووظائفها بأعضاء البدن ووظائفها، وكيف تتعرف خلال هذه المقارنة على النفوس العليلة، فإذا كان لكل عضو من البدن وظيفته التى يقوم بها إذا كان سليمًا صحيحًا معافىً، فإن علته ومرضه يظهران فى عدم قدرته على أداء وظيفته التى خلق لها، فمرض اليد يظهر فى عدم قدرتها على الحركة ، ومرض العين يظهر فى عدم قدرتها على البصر... الخ. والأمر كذلك فى الكشف عن علة النفس ومرض القلب، فمرض القلب يعرف من عدم قدرته على أداء وظيفته وهى معرفة الحق ومحبته وقصده والسعى إليه، وأولى الحقائق التعرف عليها ومحبتها هو الله الخالق، يتعرف عليه القلب ربًا خالقًا، وتطمئن إليه النفس إلهًا معبودًا إنابة إليه وتوكلًا عليه، فلو نال القلب كل حظوظ الدنيا ولم يظفر بمعرفة الله ومحبته فإن شقاوته بما عرفه وما ناله من حظوظ الدنيا أكبر من نعيمها بها؛ لأن كل محبوب له سوى الله فإنه لابد من مفارقته يومًا ما، وكل نعيم ناله فى غير طاعة الله هو محاسب عليها.

١- ومن علامات القلب المريض والنفس العليلة أنها لا يؤلمها ارتكاب القبائح ولا توجعها وطأة المعصية؛ لأن القلب لا يتألم

(١) سورة الشورى: ٤٠.

بالمعصية إلا إذا كان حيًّا بنور الإيمان، وقد يشعر القلب بالمرض الذى يعانى منه لكنه يصعب عليه تناول الدواء لما فى ذلك من مخالفة هوى النفس الذى هو أصعب الأشياء عليها، فيؤثر بقاء المرض على مشقة الدواء، كما يهرب المريض من تناول الدواء المرّ أو المؤلم، ويظل القلب يتقلب فى أودية الغواية حتى يصاب الموت ولا يشعر بألم المعصية.

٢- ومن علامات القلب المريض أنه يؤثر الغذاء الضار على النافع، كما يؤثر الدواء الضار على الدواء الشافى، والقلب الصحيح هو الذى يؤثر الدواء النافع الشافى على الضار المؤذى، وأنفع الأغذية للقلوب هو غذاء الإيمان وحب الله وذكره، وأنفع الأدوية دواء القرآن تلاوة وفهمًا وتدبرًا.

بين النفس والقلب:

يكاد يجمع الصوفية على أن النفس مسلطة بجنودها على القلب سواء قرأنا ذلك بلغة فلسفية كما هو الشأن عند الغزالى فى بعض كتبه أم بلغة صوفية ذوقية كما هو الشأن لدى معظم رجالات التصوف الذين عرضوا لبحث العلاقة بين النفس والقلب، فإن معظم الصوفية وتبعهم فى ذلك إلى حد كبير ابن القيم يرون أن معظم أمراض القلب إنما تنشأ من تسلُّط النفس عليه بجنودها، خاصة جنود الهوى وما أكثرها، وجنود الشهوة وما أشدها. فموارد الفساد كلها وافدة إلى القلب من النفس، فتحل به إرادة وهمة وعزيمة، ثم تنبعث منه إلى الأعضاء انقيادًا وخضوعًا، وفى ضوء هذا التحليل

يفسرون السر فى كثرة الاستعاذة على لسان الرسول ﷺ من شر النفس ومن سيئات العمل، وقول الرسول لحصين: «قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»[1]. ويقول ابن القيم فى عبارة قاطعة: قد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طريقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه سبحانه لا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها، بمخالفتها والظفر بها.

والمرء فى سبيل ذلك بين أمرين:

١- إما أن يظفر بنفسه، فيقهرها، فتخضع له بتنفيذ أمر الله واجتناب ما نهى عنه.

٢- وإما أن تظفر به نفسه، فتقهره لسلطان هواها، فيذل لها، فتملكه، وتستعبده، فيصير طوع هواها ورهن رغباتها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

فالنفس ترغب فى الظفر بما تهوى وإيثار الدنيا على الآخرة، والله تعالى يدعو عبده إلى الآخرة، وينهى النفس عن الهوى، والقلب بين هذين الداعيين، يميل إلى هذا مرة وإلى هذا مرة. وهنا يكمن موضع المحنة

(١) سنن الإمام الترمذى ٥/٥١٩.

(٢) سورة النازعات: ٣٧-٤١.

والابتلاء للإنسان. وهذا أمر منظور فى الحكمة الإلهية. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1].

ويشير الصوفية إلى أن النفس التى تتسلط على القلب ليست هى النفس المطمئنة، ولا هى اللوامة، ولكنها النفس التى وصفها القرآن بأنها أمارة بالسوء. وعلاج مرض النفس من هذه الظاهرة يكون بأمرين:

الأمر الأول: محاسبة النفس ومخالفتها:

ولا يتطرق المرض إلى القلب إلا من إهمال النفس بعدم محاسبتها، وموافقتها باتباع هواها. قال صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز، من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله»[2]، وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ تَزِنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ»[3].

وقال الحسن: لا يلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه، والفاجر يمضى قدمًا قدمًا لا يحاسب نفسه، وأن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/١٤٢٣.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل: ص٩٩.

وقد تكلم الصوفية كثيرًا فى محاسبة النفس ومراقبتها إيمانًا منهم بأن فى محاسبتها فى الدنيا راحة لهم فى الآخرة, وقد قسموا المحاسبة إلى نوعين:

أ- محاسبة قبل الفعل: بأن يقف المرء عند أول إرادته للفعل وهمه به، ولا يبادر بالفعل حتى يتبين له رجحان الفعل على الترك بمرجح شرعى صحيح، كما قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند همه، إن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر، ويشرح الغزالى ذلك فى الإحياء بأن العبد إذا تحركت نفسه لفعل ما وقف عند أول هم به، فإن العمل مرغوبًا للنفس محبوبًا لها توقف عنه وتركه، وإن كان ثقيلًا على النفس مكروهًا لها أقدم عليه وأتمه لله؛ لأن مخالفته لهوى النفس وعدم تحقيق رغبتها دليل على أن النفس ليس لها فيه مطلب وليس لها به تعلق. فيكون العمل لله خالصًا من هوى النفس. وهذا أمارة صحتها.

ب-أما النوع الثانى من المحاسبة فيأتى بعد تمام الفعل.

ويقسمه ابن القيم إلى ثلاثة أنواع:

١- محاسبة النفس على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الشرعى كما ينبغى، وحق الله فى الطاعة ستة أمور: الإخلاص، والتضحية، والمتابعة للرسول، والإحسان، وشهود منَّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب المرء نفسه هل وفَّى هذه المقامات حقها أم لا؟

٢- أن يحاسب نفسه على عمل كان تركه أفضل من فعله.

٣- أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله؟ وهل أراد به وجه الله والدار الآخرة فيثاب عليه؟ أم أراد به تلبية هوى النفس والدار العاجلة، فيفوته الظفر بالثواب فى الآخرة.

الأمر الثانى: معرفة عيوب النفس ومعالجتها:

ومحاسبة النفس تقود صاحبها إلى معرفة عيوب نفسه ليبادر بعلاجها، كما أنه بذلك يعرف حق الله عليه.

وفى معرفة الأمرين معًا: عيوب النفس، وحق الله تعالى ألَّف الصوفية كثيرًا من النفائس التى تحتاج إلى أن يقف عليها ويفيد أبناء العصر منها، وعاشوا تجاربهم، ودوَّنوا مآثرهم.

وما الكتاب الذى بين أيدينا إلا حلقة فى هذه السلسة، نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجه الله، وأن يجعله فى ميزان الحسنات يوم القيامة. آمين.

تكريم الإنسان فى القرآن

-١-

لقد كرم الله الإنسان فى القرآن الكريم، وجعل ذلك دينًا وعقيدة لا يجوز أن يتنكر لها حاكم ظالم، ولا مسئول خائن، فيهين ما أكرمه الله، أو يذل ما أعزه الله، والقرآن الكريم قد قرر هذه الحقيقة بقرار إلهى صريح ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

والتكريم هنا ليس خاصًّا بالإنسان المسلم كما قد يتوهم ذلك البعض. لا .. إنه تكريم لكل بنى آدم، المؤمن منهم والكافر، البار منهم والفاجر، الصالح منهم والطالح، ونقرأ فى فلسفة التعبير القرآنى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ بعدًا كبيرًا ربما غاب عنه كثيرون ... إنه التكريُم الذاتى لبنى آدم بمقتضى كونه إنسانًا وليس لشيء آخر خارج عن ذاته. والفرق كبير فى التعبير القرآنى بين كرمنا بنى آدم وأكرمنا بنى آدم. إن لفظ الآية الكريمة يوحى للقارئ أن صفة التكريم ذاتية فى بنية الإنسان، وليست مضافة إلى الذات من الخارج. إن الآية الكريمة تقول: كرمنا أى جعلناه ذاتًا مكرمة فى ذاتها وليس التكريم ممنوحًا من الخارج، فإذا أنا أكرمت محمد إذا أعطيته

(١) سورة الإسراء: ٧٠.

شيئًا أو منحته عطية غير مستحقه أكرمته بها وخصصتها له دون غيره. فتقول أكرمته بها.

أما الآية الكريمة فتقول: {كرَّمنا} أى جعلنا ذاته مكرمة فى ذاتها تكريمًا لها بمقتضى خصوصيات قد تتعرض لها فيما بعد حيث اختصه الله بها فى بنيته وخلقته واستعداداتها للحياة التى خلق الإنسان من أجلها. ولذلك فإن هذا التكريم الإلهى للإنسان يستمد قداسته من قداسة العقيدة التى نزل بها الوحى؛ لأنها قرار إلهى غير قابل للنقض.

ويعيش فى ظل هذا التكريم الإلهى الإنسان الأسود والأبيض، الذكر والأنثى، الغنى والفقير، الأمير والخفير، المسلم والكافر، إنها منحة الخالق لمن خلقه، وتكريم منه لمن صنعه بيديه، وسوَّاه على عينه، وأمر الملائكة بالسجود له، وجعله – دون غيره من الموجودات – مؤهلًا لحمل أمانة المسئولية عن هذا العالم ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

إن هذا التكريم الإلهى أعطى الإنسان سياجًا حصينًا من الحرمة، تمثلت فى حرمة: دمه، وماله، وعرضه، وعقله، لقد أعطاها القرآن نوعًا من الحرمة، فلا يعتدى عليها أو تنتهك قداستها، إنها عصمة من الخالق للإنسان أن ينتهك حرماته أحد أو تهون حرماته على أحد أو ينال من حقوقه أحد، هذا النوع من العصمة ينعكس على الإنسان نفسه إحساسًا

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

وشعورًا بالعزة والكرامة والفخر، إنه عبد مكرَّم من خالقه، معصوم النفس والمال والعرض، إنه سيد فى هذا العالم، وليس مسودًا لأحد، إنه مستخلف فى العالم، ومستخلف على العالم، وأمين الله على العالم. وهذا الإحساس بالعزة والكرامة شعور عام يتمتع به كل إنسان لأنه فى حمى خالقه بمقتضى قانون صنعته، ولا يزال إحساسه وشعوره مصاحبًا بالكرامة حيًّا وميتًا ما لم ينتهك هو حرمة نفسه، ويرتكب من الأعمال ما ينزع عنه هذه الكرامة أو يخل بها، فتناله العقوبة التى قررها الشرع.

إن تكريم الله للإنسان دين وعقيدة يدين بها كل مسلم، فإن الخالق سبحانه قد كرمه بمجموعة من الخصائص التى انفرد بها دون سائر الموجودات؛ لتكون مؤهلة له لتحمل هذه المسئولية التى عبَّر عنها القرآن الكريم بلفظ (الأمانة) واجبة الأداء والتنفيذ والنكوص عنها أو ضياعها وعدم القيام بها يعتبر خيانة لهذه الأمانة وخيانة للمسئولية التى كلف بها وامتلك أدوات تحملها دون غيره.

إن تكريم الله للإنسان يمثل نوعًا من الاصطفاء والاختيار لهذا الكائن؛ لكى يتولى شأن هذه المسئولية، إنها مسئولية تنفيذ أوامر الله فى كون الله (تنفيذ المنهج القرآنى فى هذا العالم) أوامر الله الكونية: قوانينه، سننه، وهذه الوظيفة أو هذا الاصطفاء اقتضى أنواعًا من التكريم الإلهى للإنسان وإعدادًا خاصًّا له على مستوى البنية المادية للجسد والبنية الروحية (النفس/ الروح) بحيث تتلاقى فى كينونة الإنسان أطراف الحكمة الإلهية فى تعاون البنية المادية واستعدادها لتقبل عوامل البنية الروحية ولا تتعارض معها، فيستقبل

الجسد الترابى كل أوامر النفس وقراراتها إذعانًا وخضوعًا وانقيادًا دون معارضة أو تمرد حتى تستقيم حياة الإنسان سوية وهنية.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى عظمة هذا الإعداد الإلهى وأسراره بعبارة مشحونة بكل معانى الفخر والتكريم والاعتزاز فى خطاب القرآن لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] ولك أن تتخيل قمة التكريم الذى توحى به هذه العبارة الكريمة ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أى أن هذا خلق الله وصنعة يديه لا صنعة غيره. وقيمة الصنعة جزء من قيمة صانعها وكرامة الصنعة من كرامة صانعها، ولذلك جاءت صيغة الآية الكريمة فى أسلوب الاستفهام الإنكارى التوبيخى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾.

إن الإعداد الإلهى لهذه الصنعة تختلف عن كل الكائنات الأخرى على تعدد أنواعها: النبات، والجماد، والحيوان؛ لأن هذا المخلوق هو الكائن الوحيد الذى يعد إعدادًا خاصًا ليتولى الخلافة عن الخالق فى حراسة هذا العالم وتعميره، وهو الكائن الوحيد الذى تأهل بحكم هذا الإعداد الإلهى له جسديًا وعقليًا ونفسيًا لأداء هذه المهمة؛ ولذلك فإن الخصائص التى زوده خالقه بها، والعطايا التى وهبها له جعلته – دون غيره – بمثابة الجسر الذى تعبر عليه وتعبر به أوامر الله وقوانينه التنظيمية لحركة هذا العالم حتى يؤدى وظيفته الوجودية بلا نقصان إنه قانون الاستخلاف فى الأرض الذى جعله الخالق

(١) سورة ص: ٧٥.

خاصًّا بهذا الكائن دون غيره، واصطفاه له دون غيره، ووهبه أدوات الاستخلاف ليؤدى المهمة دون غيره، إنه استخلاف عن ربه، عن الخالق، فى تعمير الكون بقوانين الله، إنه التعمير ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] إنه قانون التعبد لله بما خلق، وفيما خلق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2] إنه استجلاء آيات الله من كون الله وفى كون الله، إنه اكتشاف تجليات أسماء الله وصفاته العلى فى صنعته. إنه التعرف على صفاته فى آثاره الكونية.

إنه قراءة الكون باعتباره المذكرة التوضيحية التفسيرية لما جاء مجملًا فى القرآن من آيات الكونية. ولا مدخل لنا ولا وسيلة إلا بالعلم الكونى الذى كلفنا الشرع به من قراءة الكون وتدبر الصنعة. إن هذا الإعداد الخاص للإنسان أحد مظاهر التكريم المؤهلة لتحمل مسئولية هذه الخلافة.

ولك أن تدور بناظريك فى هذا العالم من سمائه إلى أرضه لتسأل: أى نوع من كائنات هذا العالم يمكن أن يتحمل مسئولية هذه الخلافة؟ بل أى نوع من كائنات هذا العالم مسئول حتى عن نفسه؟ هل عالم الجماد مسئول؟ هل عالم النبات مسئول؟ هل عالم الحيوان مسئول؟ الجواب: لا. أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى خاطبه القرآن خطابًا يؤذن بتحمل المسئولية بقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[3] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٩.

ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [1]، ومقتضى هذا الخطاب هو تحمُّل المسئولية إزاء هذا التسخير.

وهو الكائن الوحيد الذى خاطبه القرآن وكلفه بتعمير الكون ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾.

ولا شك أن أمر خطاب التكليف بهذه المسئولية يمثل أفقًا أعلى من مستويات التكريم الإلهى للإنسان؛ لأن مسئولية الاستخلاف والتعمير للكون مهمة تتقاصر دونها الأعناق والهمهم، ثم إن مصدر هذه المسئولية ومنشأها من الخالق سبحانه، من الخالق لنوع من أنواع المخلوقات. اشرأبت أعناق الملائكة تطلعًا لتحمل هذه المسئولية، وقالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

إنه تكريم خاص أحاطته قدسية الخالق ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ إن خصوصية هذه الصنعة تتمثل فى أنه الكائن الوحيد الجامع بين عالمى المادة والروح، من بين عالمى الفناء والبقاء، بين عناصر التراب وخصائص الطين ولطافة الروح وقدسية العقل، بين كثافة المادة ونور العقل.

إنه مجمع العالمين يتصل بالعالم العلوى بروحه وعقله ويتصل بعالم

---

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

المادة بجسده، وهذا سر من أسرار ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] والتجلى العملى لـ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾[2]، وكلما عظم اتصاله بالعالم العلوى وتشربت روحه من أسراره يقل انفعاله بعالم المادة، وتتخلص روحه من شوائبها.

ومن اللافت للنظر فى خطاب القرآن عن الإنسان تذكيره المتكرر بأصله الترابى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[3]، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾[4]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝٢ ﴾[5]، ﴿ خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[6]. وهذه الإشارات المتكررة تذكر الإنسان بأصله الترابى كلما نسى أصله أنه من التراب، فليس غريبًا عن هذه المادة، ولا هى غريبة عنه، وأن هذا الأصل الترابى هو المادة الخام لكل ما على الأرض من نبات وحيوان، وأن هذا الأصل يمثل همزة الوصل بين كل الكائنات فى هذا العالم، فهناك وشائج قربى قوية بين بنية الإنسان وعناصر الوجود وخصائصه الكيمائية، وهذه الوشائج تمثل قانونًا وركيزة لفهم وحدة الأصل، وأن الكلَّ أصله ترابى، الإنسان والحيوان والنبات، وهذا يطرح على العقل سؤالًا عن طلاقة القدرة الإلهية وحكمة التدبير للصنعة، وأفق المشيئة وشمول الإرادة. كيف .. وكيف. الأصل واحد. ثم هذا البون الشاسع الذى لا

(١) سورة ص: ٧٥.

(٢) سورة الليل: ٧.

(٣) سورة الأعراف: ٢٦.

(٤) سورة طه: ٥٥.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢.

(٦) سورة الحج: ٥.

يحيط به العقل علمًا بين أفق الجماد الترابى الأصل وأفق الإنسان الذى يتصل بالملأ الأعلى، ولك أن تتصور المسافة الشاسعة بين الجماد الأصل والإنسان الربانى .. ونسأل: من سوى؟ من خلق؟ من دبر؟ وهذا مستوى آخر من مستويات التكريم للإنسان، أشارت إليه الآيات القرآنية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [1] وقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [2]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [3].

هذا الأفق الأعلى من التكريم فى خلق الإنسان على هذه الصورة المكرمة من اعتدال القامة واستقامتها، وخلق العينين فى مقدمة الرأس وليس فى المؤخرة ولا فى أعلى الرأس، وخلق اللسان بهذه الكيفية من المرونة التى تساعده على سرعة الحركة فى النطق؛ إذ لو كان غير ذلك لما أدى وظيفته، ولك أن تتخيل موضع العينين لو كانت فى مؤخرة الرأس أو فى أعلاها كيف يكون حال الإنسان وكيف تؤدى العين وظيفتها. نعم إنه تكريم الخلقة فى ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[4]، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

(١) سورة التين: ٤.

(٢) سورة الانفطار: ٦-٨.

(٣) سورة الأعراف: ١١.

(٤) سورة الانفطار: ٨.

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1]. لك أن تتصور حال الإنسان إذا استعصت عليه أعضاء جسمه، فلم يقم بوظائفها، وتمردت عليه ورفضت الانصياع لإرادته. كيف يكون حاله إذا فتح عينيه ورفضت أجفانه أن تغمض أبدًا، أو إذا أغمض عينيه ورفضت أجفاته أن تفتح أبدًا. تخيل وضع الإنسان إذا فتح فاه ثم رفض الفم أن يغلق الشفتين أو العكس، تخيل حال الإنسان إذا قبض أصابعه ثم تمردت ولم تنفتح أو العكس. لابد أن تسأل نفسك هذه الأسئلة حتى تشهد تكريم الله لك، وتشهد نعم الله عليك، وتذكر آلاءه فيك، وتقرأ قوله تعالى مذكرًا لك بهذه الآيات: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[2]، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

إن خضوع هذه الأدوات فى حركتها لإرادة الإنسان يحمل من معانى التكريم والتشريف لهذا المخلوق ما لا يقدر الإنسان على الوفاء بحقه، فالبنية الداخلية للإنسان تحمل من عناية الله بالإنسان ورعايته له ما جعل جميع أعضائه وخلاياه ذلولًا لإرادته منها مما يجعلها أعلى شأنًا وأرفع مكانًا وأكثر دلالة على خصوصية الإنسان وعلو شأنه بامتلاكه هذه الاستعدادات التى تؤهله لأداء دوره الخلافى والتعميرى والتكليفى دون معاندة منها أو رفض

(١) سورة التغابن: ٣.

(٢) سورة البلد: ٨-١٠.

(٣) سورة الأعراف: ٦٩.

لإرادته، وهذا مما أشار إليه القرآن فى قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾.

ولا يقتصر تكريم الله للإنسان على بنيته الخارجية فقط فهو سبحانه سوَّى البنية الداخلية للفرد على نحو يؤهله لأن يحيا فى مجتمع يألفه ويأتلف معه، فوهبه من الشعور والعواطف الوجدانية ما يحقق له سعادة الإحساس بشعور الأخوة مع بنى جنسه، فالمؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وهذا يحقق للإنسان تواصله مع المجتمع وامتزاجه به وشعوره به وإحساسه بالحاجة إليه طلبًا للمساعدة عند الحاجة ومعاونة للمجتمع فى دفع الأذى عنه كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [1]. فالاستعداد الداخلى فى بنية الإنسان للتعارف والتآلف أمر فطرى وأصيل فى بناء الشعور الاجتماعى بحاجة الفرد إلى الجماعة ومسئولية الجماعة عن الفرد، ولا يشذ المرء عن ذلك الإحساس إلا لعارض مرضى يعوقه عن ذلك.

إن بنية الإنسان الخارجية والداخلية تمثل الصورة الجامعة لعالم المادة وخصائصها وعالم الروح وخصائصها. إنها ملتقى الكون كله العلوى منه والأرضى، ذلك أن العالم فى تكوينه لا يخرج عن هذين العنصرين المادة والروح، المادة تمثل عالم الفناء، والروح هى نموذج عالم البقاء، وقد اجتمعا

(١) سورة الحجرات: ١٣.

معًا فى بنية الإنسان الداخلية والخارجية، واكتملت خصائصهما معًا فى هذا (المجمع) العجيب، ولعل هذا أحد تجليات حكمة الوجود الإنسانى التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [1] لنبتليه بالجمع بين المادة وخصائصها وما تطلبه من سلوكيات ورغبات، والروح وخصائصها وما تمليه على الإنسان من سلوكيات ووجدانيات وأحاسيس وشعور.

إنه التجسيد الحى لمظهر من مظاهر حكمة الوجود الإنسانى التى عبر عنها القرآن الكريم فى قوله سبحانه: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [2]، وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [3] وهو فى نفسه تجسيد للعالم الأكبر فى هذا العالم الأصغر، كما قال الشاعر معبرًا عن هذه الحقيقة:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

إن هذه البنية الإنسانية مجمع لخصائص العالم الأكبر كله، مجمع لما هو مبثوث وفيه متفرق من عالم المادة وعالم الروح، وقد نتج عن هذا الجمع خصال وصفات وسلوكيات وجدانية وشعور لا نجده فى عالم آخر غير الإنسان جعلت منه كائنًا خاصًّا مؤهلًا – دون غيره – لأن يكون منه النبى والرسول، ويكون منه الولى والعارف بالله، ويكون منه المؤمن والكافر

(١) سورة الإنسان: ٢.

(٢) سورة الملك: ٢.

(٣) سورة الإنسان: ٢.

المنكر، ويكون منه المستقيم على الطريق والمتنكب للصراط، ويكون من وصفه القرآن بأنه ﴿ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ [1] كذلك لا تعجب إن رأيت إنسانًا لين الطبع هادئ النفس مطمئنًا ورأيت آخر هلوعًا فظًّا غليظًا الطبع، فإن البنية الإنسانية مؤهلة لأن تكون إنسانًا شيطانًا وأن تكون إنسانًا ملائكيًا، إما شاكرًا وإما كفورًا. لأن هذه البنية قد استجمعت فى خصائصها كل هذه المؤهلات، وهذه الاستعدادات، فالله قد جمع فى تسويته للنفس الإنسانية من القوى ما يجعلها تعلو بصاحبها إلى مصاف الملائكة وما تهبط به إلى أسفل الدرك المادى الحيوانى، وقد أشار إلى ذلك أبو الراغب الأصفهانى فى كتابه تفصيل النشأتين، فقال: قد جمع الله تعالى فى الإنسان قوى بسائط العالم ومركباته، وروحانياته، وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته، فالإنسان من حيث إنه بواسطته العالم حصل، ومن أركانه وقواه أوجد هو العالم، ومن حيث إنه صَغُر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم، فإن المختصر من الكتاب هو الذى قل لفظه واستوفى معناه. والإنسان هو هكذا إذا اعتبر بالعالم، ومن حيث إنه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته، فهو كالزبد من المخيض، والدهن من الشحم، وكما كان كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الأدوية والأطعمة، كذلك فى نفس الإنسان حصل معنى ليس فى شيء

(١) سورة الأعراف: ١٧٦.

من موجودات العالم[1].

هذه الخصائص جعلت الإنسان مؤهلًا لتلقى خطاب السماء؛ ليكون منه الرسول والنبى، وجعلت منه شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، وبين وحى السماء إلى الإنسان ووحى شياطين الإنس إلى الإنس تمتلئ هذه المسافة بمراتب الناس ودرجاتهم، وعلو منازلهم أو دنوها، ورقى البعض فى مدارج السالكين وتسفل البعض فى أسفل سافلين، والآية الكبرى فى دلالة ذلك على الخالق.

إن النفخة الإلهية قد نقلت النطفة من عالم الجماد إلى عالم الإنسان، من عالم المادة الجامدة الصماء إلى عالم يتصل بالملأ الأعلى ويستمد من نوره ومراده وأسراره ما جعله سيدًا فى العالم وإن شئت فقل سيدًا عليه ومسئولًا عنه وخليفة فيه، ومن حق العقل المفكر أن يتساءل عن مرحلة وجود الإنسان فيما قبل وجوده، من حقه أن يتساءل عن وجود الإنسان قبل أن يكون نطفة وقبل أن يكون منيًا يمنى أين كان وكيف كان.

للعقل أن يفكر كيف كانت النطفة كامنة فى ذرة التراب أو فى عود النبات الذى يأكله الحيوان أو فى ثمرة الفاكهة التى يأكلها الإنسان، وللعقل أن يتساءل هل هذه النطفة كامنة فى الذرة الترابية منفردة، أو فى النبات منفردًا، أو فى ثمرة الفاكهة التى تأكلها الإنسان منفردة.

وهل خصائص هذه النطفة التى ظهرت فى سلوك الإنسان بعد وجوده كامنة فى هذه الأشياء منفردة أو فيها مجتمعة، أو هى سر من أسرار قوله

(١) تفصيل النشأتين: ص٧٦-٧٨ نقلًا عن عبد المجيد النجار – قيمة الإنسان.

سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [1].

وهل الإنسان الحامل لهذه الخصائص الترابية يعتبر غريبًا عن هذا الأصل الترابى أو هو جزء منه تلبسته من النفخة الإلهية فى مرحلة وجودية محدودة، فإذا فارقته هذه النفخة الإلهية عاد مرة أخرى كما كان إلى أصله الترابى، وهل يتصور عاقل أن هذه الخصائص الكامنة فى هذه الذرة الترابية تخرج من عدمها المخض إلى هذه الوجود الإنسانى وهى حاملة لهذه الخصائص بذاتها؟

أليست هذه المراحل الوجودية قبل وجود الإنسان آية من آيات الخالق، إن أيات الخالق فى المرحلة الوجودية السابقة على الوجود أظهر للعقل وأكثر دلالة على أن مرحلة التسوية ومنح الاستعدادات الهائلة لهذه النطفة لكى ينشأ منها خلق آخر ووجود آخر ومستوى من الوجود متصل بالأفق الأعلى، كل ذلك يحمل للعقل تفسير الأسرار فى هذا القسم الإلهى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾ وعظمة النفس وشرفها وعلو شأنها فى مدارج المستويات الوجودية للكون وما فيه. فبعد أن أقسم الخالق بآيات الكون فيه ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ [2]. ولاحظ هذا التدرج فى هذا القسم من الأدنى إلى الأعلى ليصل إلى قمة الآيات إعجازًا وشرفًا ودلالة

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) سورة الشمس: ١-٦.

ومكانة فيقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾ إنها لفتة تقفز بالعقل من عالم الآيات المحسوسة إلى أفق أعلى من الوجود الغيبى لا تدركه الحواس، ولا يناله العقل إلا بآثاره، ولا يقف على قدرة من خلق وسوى إلا بالتأمل فى خصائص هذه الذرة الترابية التى كانت منها النطفة إنسانًا نبيًا ورسولًا وإنسانًا شيطانًا ماردًا عنيدًا.

إنها الآية التى تنقل العقل نقلة كبرى أشبه بالطفرة لأنها نقلة من عالم المادة التى ألقتها النفس وعرفت خصائصها بالتجربة إلى مستوى غيبى من الوجود لا علاقة للحواس به يفرض نفسه على العقل ويلزمه الاعتراف به واليقين بوجوده والإيمان بأن وراء عالم المادة عالمًا غيبيًا تدركه عقولنا بآثاره، ولا ينفك العقل عن الإيمان بوجوده ليكون الإنسان نفسه هو الآية وهو الدليل ويكون بنفسه آية لنفسه إذا أعوزه الدليل على وجود عالم الغيب، فيكون الإنسان هو الآية وهو الدليل، هو الدال والمستدل، لتجد فى بيئته مقومات الإعجاز الإلهى فى وحدة الدليل والمستدل، ويعود الإنسان بعقله متأملًا قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾ [1]، وقوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [2].

ووحدة الموقف المعرفى هنا تقودنا إلى فهم الأسرار القرآنية الكامنة فى قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ ﴾ [3]. إن هناك

(١) سورة الطارق: ٥.

(٢) سورة الذاريات: ٢٠-٢١.

(٣) سورة الحاقة: ٣٨-٣٩.

مخزونًا من أسرار الوجود الإنسانى والكونى كلما اكتشف العلم منه سرًّا ازداد معرفة بجهله وإن ما اكتشفه من العلوم وقوانين العلم قليل من كثير، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1]، وأكثر ما يكون الجهل الإنسانى متجسدًا فى علمه بحقيقة نفسه وجهله بأسرارها، والمخزون المعرفى بخصائصها الخِلقية والخُلقية، ولذلك قالوا قديمًا: "من عرف نفسه فقد عرف ربه" دلالة للعقل على أن معرفة النفس على سبيل الكنه والحقيقة أمر مستحيل؛ لأن ذلك فوق طاقة العقل البشرى، وسوف تظل النفس مصدرًا للإعجاز، نعرف منها ولا نعرفها، ونعرف من خصائصها على قدر استطاعة العقل، ويظل السر الأعظم كامنًا فيها مجهولًا للعقل، نعرف منه ولا نعرفه.

وإذا كانت معرفة النفس على سبيل الكنه والحقيقة مستحيلة وفوق مستوى العقل البشرى. ومعلوم أن النفس مخلوقة والعقل مخلوق، وقد عجز العقل المخلوق عن معرفة مخلوق مثله، فكيف بالعقل إذا أراد أن يعرف حقيقة خالقه؟

وكيف بالعقل إذا أراد أن يتعرف على كنه ذات الخالق وحقيقة صفاته؟ وكيف بالعقل إذا أقحم نفسه فى ميدان غيبى ليس مؤهلًا لمعرفته ولا يملك أدوات البحث فيه؟

وكيف بالعقل إذا اتجرأ على كلام الخالق عن نفسه وعن صفاته ليقوم بتأويلها على نحو يجعل العقل قابلًا لها، وخاضعًا لأدواته المعرفية؟

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

إذا كان الرسول ﷺ قد توقف عن الإجابة على سؤال الروح؛ لأنها تنتمى إلى عالم غيبى، حتى نزل القرآن بالإجابة عن السؤال بأنها من عالم الأمر وليست من عالم الشهادة، من عالم الغيب وليست من عالم المادة، وكانت الإجابة القرآنية مجملة وكلية جامعة وليس فيها تفصيل أكير من أنها من عالم الأمر، ونقل الرسول ﷺ الإجابة كما نزل بها الوحى دون تفصيل ولا شرح ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى ﴾.

إن محاولة العقل أن يتعرف على حقيقة النفس وكنها نوع من القفز إلى أفق المعرفة الغيبية التى لا ينال منها إلا الظن أو التخيل، فما بالك إذا حاول القفز إلى أفق الألوهية (الذات والصفات) ليتأمل نصوصها بدعوى قبول العقل أو رفضه للنص، إن هذا أمر قد حاول البعض أن يلج بابه، فضلَّ وأضلَّ، وما جنى إلا الحيرة والندم. وصدق من قال: "من عرف نفسه عرف ربه". وإذا كنت جاهلًا بحقيقة نفسك، فإن جهلك بحقيقة الذات وحقيقة الصفات أكثر وأكثر، وسبحان من لم يجعل لنا سبيلًا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته، وكفانا من الإيمان بوجود النفس أن نؤمن بأنها مدخل للإيمان بعالم الغيب.

مسئولية الإنسان كما تحدث القرآن

- ١ -

كان الإنسان - ولا يزال - القضية الكبرى التى شغلت عقول المفكرين قديمًا وحديثًا؛ قديمًا فى التراث اليونانى وفى الحضارة المصرية القديمة، وحديثًا فى المدارس الفلسفية الحديثة والمعاصرة. فما من حضارة أو مذهب فلسفى إلا قدَّم إجابة على سؤال الإنسان. ما هو؟ ما حقيقته؟ هل هو هذا الكائن المادى المحسوس أو هو حقيقة غيبية تلبست هذا الجسد الحسى فجعلته إنسانًا كائنًا حيًّا، يروح ويغدو ويحس ويتحرك، ما وظيفته الوجودية؟ ما مكانته بين سائر الكائنات الأخرى؟ هذه الأسئلة وغيرها كثير قد شغل بها المفكرون أنفسهم، وجاءت الإجابات مختلفة ومتنوعة وأحيانًا متضاربة حسب المنطلقات الثقافية التى يصدر عنها كل مذهب أو حضارة.

فبينما ذهبت الفلسفات الغربية - فى معظمها - إلى تفسير الإنسان تفسيرًا ماديًا، يخضع لقوانين المادة، ومتى امتلكنا قوانين المادة، وتعرفنا على خصائصها يمكن لنا بالتالى أن نتحكم فى سلوك الإنسان، ونتعرف على ميوله ورغباته وتتنبأ له بمستقبله، فنرسم له الخطط المستقبلية على مستوى الفرد والجماعة، وتحول الإنسان عندهم إلى ظاهرة مادية ميكانيكية يمكن التحكم فيها بمعرفة قانونها، كما يتحكم العامل فى الآلة التى يستعملها. وهذا التفسير المادى يمتد من التراث اليونانى، متمثلًا فى مذهب اللذة عند

ديمقرطيس إلى المدارس الحسية فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

وهذا التفسير المادى يختلف فى الكثير من جوانبه عن الفلسفة الشرقية الماثلة فى الفلسفة الهندية القديمة والحضارة المصرية وفلسفة فارس، حيث تميل هذه المدارس إلى التفسير الروحى للإنسان، فالجسد عندهم ليس إلا وعاء تلبسته القوى الغيبية (النفس/ الروح)، وصار الجسد وعاء لها خاضعًا لأوامرها مؤتمرًا بما تهوى وتحب، وانعكس هذا التفسير فى موقف هذه المدارس من سلوك الإنسان وتفسيره، وفى علاقة النفس بالجسد، ودور النفس فى تحديد سلوك الإنسان والأنماط الأخلاقية التى ينتمى إليها هذا الإنسان أو ذاك، فهذا خير وهذا شرير، وهذا متهور وهذا حليم، وهذا شجاع وهذا جبان ... الخ.

وقد يظهر على السطح بعض الأساطير التى تعتمدها الفلسفات الشرقية وتعتبرها أساسًا فى تفسير السلوك الإنسانى وعلاقة النفس بالبدن كما فى الفلسفة البوذية وفلسفة مانى وزرادشتا.

إن قراءة هذا التراث المتعلق بالإنسان يفرض علينا التساؤل وماذا فى حضارتنا الإسلامية عن الإنسان؟ ماذا فى المصدر الأول – القرآن الكريم – من إجابات عن هذه الأسئلة؟ وما هى التفسيرات التى يقدمها القرآن الكريم خلال حديثه عن الإنسان .. عن النفس .. عن الروح .. عن وظيفة الإنسان الوجودية .. عن مكانة الإنسان فى هذا العالم .. وهل الإنسان ظاهرة مادية كما يذهب إلى ذلك الكثير من المدارس الغربية أو ظاهرة روحية كما تميل إلى ذلك الفلسفات الشرقية القديمة؟ وما هى أوجه الخلاف أو الاتفاق بين

حديث القرآن عن الإنسان وحديث المدارس الفلسفية الأخرى، الغربي منها والشرقي على سواء.

ولابد أن نتوقع التباين الشديد بين حديث القرآن عن الإنسان وحديث الفلسفات الإنسانية عمومًا. ذلك أن حديث الإنسان عن الإنسان لابد أن يكون محكومًا بقصور الإنسان الذاتي وجهله الذاتي وتقصيره الذاتي في وسائل الوصول إلى الحقيقة. أما حديث القرآن عن الإنسان فإنه حديث الخالق عن مخلوقه. حديث الصانع عما صنع. وقد حسم القرآن هذه المعرفة اليقينية في قوله سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾[1]. ومن هنا لابد أن نتوقع البون شاشعًا بين تصوير القرآن لحقيقة الإنسان ومكانته ووظيفته الوجودية في هذا العالم وحديث الإنسان – أيًّا كان مذهبه الفلسفي وانتماؤه الحضاري – لابد أن نتوقع تباينًا شديدًا بين حديث الإنسان بقصوره الذاتي وجهله الذاتي، وعجزه الذاتي وحديث الخالق عما خلق، ولا ينبئك عن هذا مثل خبير، ومن هنا قد نجد بعض الرؤى الإنسانية قريبة بين الحقيقة الإنسانية وبعضها الآخر بعيدة كل البعد، بعضها قصر نظره إلى الإنسان كظاهرة مادية محسوسة تدرك بحواسنا الخمسة، وبعضها الآخر تجاوز الظاهرة المحسوسة من الإنسان إلى جانبه الغيبي لكنه قصر نظره على هذا الجانب الغيبي فقط، وأهمل الجانب الحسي بقدر ما أهمل أصحاب الموقف الأول الجانب الغيبي من الظاهرة الإنسانية.

* * *

(١) سورة الملك: ١٤.

وفى التصور الإسلامى للوجود نجد الإنسان يحتل مكانة وجودية جعلته مؤهلًا لأن يكون مسئولًا عما دونه من كائنات هذا العالم. ولك أن تتصور الوجود على النحو الآتى: الجماد/ النبات/ الحيوان/ الإنسان.

فالجماد مسخر فى خدمة ما فوقه من كائنات العالم، من النبات والحيوان والإنسان، وكذلك النبات مسخر فى خدمة ما فوقه من الحيوان والإنسان، والحيوان مسخر فى خدمة الإنسان، وهكذا ينبغى أن نتصور الهرم الوجودى على هذا النحو.

عالم الإنسان

عالم الحيوان

عالم النبات

عالم الجماد

فهذه السلسلة الكونية تبدأ بعالم الجماد وتنتهى فى قمتها بعالم الإنسان، وعلى هذا النحو تتدرج وظائف هذا الوجود من الأدنى إلى الأعلى؛ ليحتل الإنسان قمة الهرم فى هذا العالم، وما تحته من كائنات مسخرة بحكم وجودها لخدمته. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1]، وفى آية أخرى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[2]. وتكرر هذا فى القرآن كثيرًا؛ المكى منه والمدنى على سواء.

(١) سورة البقرة: ٢٩.

(٢) سورة الجاثية: ١٣.

والإنسان بحكم هذا الترتيب فى سلم الكائنات الوجودية يمثل قطب الرحى فى عالم الشهادة، فالكل مسخر لخدمته، وهو المخدوم بها، وليس الخادم، وهو الكائن الوحيد – دونها – الذى أرشده القرآن إلى مسئوليته عنها، وحراسته لها دون غيره، وكلفه بحسن توظيفها ليحسن بالتالى إفادته منها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2] بمعنى كلفكم بعمارتها، وعند التأمل نجد أن هاتين الآيتين تحددان مسئولية الإنسان فى هذا العالم .. عالم الشهادة. الأرض وما على الأرض، وما فى باطن الأرض.

وفى تصوير القرآن لعلاقة الإنسان بهذا العالم نجد أن القرآن الكريم قد نبَّه إلى أن كل الكائنات فى هذا العالم مذللة له، وخاضعة لإرادة الإنسان بحكم وجودها وبحكم ترتيبها فى سلم الوجود. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[3]. فكل ذرة فى هذا العالم مذللة وخاضعة لإرادة الإنسان فيها وإرادته منها.

وفى التصور الإسلامى نجد أن الإنسان – وقد احتل قمة هذا الهرم – وأن

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة هود: ٦١.

(٣) سورة الملك: ١٥.

العالم كله خلق ذلولًا لإرادته، ومسخرًا له، فيكون الإنسان مسئولًا عن هذا الهرم الوجودى لعالم الشهادة، ومسئولًا عن صلاحه وإصلاحه بالإضافة إلى مسئوليته عن تحقيق الغاية الكبرى من وجوده، ومسئولًا عن تحقيق الوظيفة التى نبَّه الشرع إليها وكلفه بها، وهى تتمثل فى:

١- تحقيق وظيفة الاستخلاف على هذا العالم ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

٢- تعمير الكون باكتشاف قوانينه وحسن توظيفها. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾.

٣- تحقيق معنى العبودية والتعبد للخالق. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

هذه الوظائف الوجودية لم يخاطب القرآن بها أى نوع من أنواع الكائنات الأخرى سوى الإنسان.

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى كلَّفه الشرع بذلك، وأمره بحمل أداء هذه الوظائف وتحقيقها؛ لأنه – دون سائر الكائنات – قد خصه خالقه بخاصية العقل والاختيار بين البدائل، وجعل مسئوليته مرتبطة باختياره وإرادته، بخلاف أنواع الكائنات الأخرى التى يقع الفعل منها بمقتضى الغريزة واستجابة لندائها التى جبلها الخالق سبحانه عليها، ففعل الحيوان لم يقع

(١) سورة الذرايات: ٥٦.

منه مشروطًا بقيد من خارج ذاته، ولا خاضعًا لأمر مفروض عليه من خارج ذاته، ولم يكن مكرهًا على الفعل أو الترك، بل وقع الفعل منه مطلقًا من كل قيد حين يفعل أو يترك إلا استجابته لغريزته.

أما الإنسان فإن فعله يكون محكومًا بقيد العقل والتفكير وحسن الاختيار بين البدائل، وتفكيره فى الآثار والنتائج المترتبة على الفعل أو الترك، وقد نبَّه القرآن على تحمُّل التبعة والعواقب المترتبة على ذلك ومسئوليته عن نتائجها.

٢- المسئولية على قدر العطاء:

لعل إدراك الفرق بين الفعل الإنسانى والفعل الحيوانى يفتح الباب للإجابة على السؤال السابق. لما كان الإنسان مسئولًا والحيوان غير مسئول؟ ولما كانت المسئولية تكريمًا وتشريفًا للإنسان وأكثر تعبيرًا عن خصوصيته وأكثر إمعانًا فى التعبير عن ذاتيته؟ إنها المسئولية التى كرَّمه الله بها دون سائر الكائنات؛ لأنه الكائن الوحيد الذى خصّه الله بالعقل كأداة للتفكير فى عواقب الأفعال حتى يحسن اختيار الفعل أو الترك، يفزع إلى الإقدام أو الإحجام. وكانت هذه الخاصية منطلقًا لخطاب القرآن الكريم للإنسان دون غيره بالأوامر والنواهى التكليفية، وكانت منطلقًا لمساءلة الإنسان عنها، وعن حسن توظيفها، وعن آثارها فى سلوكه الاجتماعى، وكأن القرآن الكريم يضع الإنسان فى مواجهة مباشرة أمام نفسه حين يسأله عن تقصيره فى حسن توظيف هذه الآلة التى ميَّزه الله بها عن بقية الكائنات.

والمسئولية هنا على قدر العطاء الإلهى للإنسان، فكل عطاء تقابله

مسئولية، وعلى قدر عظمة العطاء وقيمته تكون قيمة المسئولية وضخامة آثارها. وكلما ازداد الإنسان إيمانًا بكرامته وعظمة العطاء الإلهى له يكون إيمانه واعتزازه بالمسافة بين سلوكه وتصرفاته وسلوك الحيوان وتصرفاته تجسيدًا للفوارق والخصائص العقلية والأدوات الإدراكية التى خصَّه الله بها وميَّزه بها على سائر الحيوان.

* * *

والإنسان الذى يتحدث عنه القرآن ليس ظاهرة مادية يعمل لإشباع حاجته البيولوجية، كما هو الشأن فى المذاهب المادية ونظرتها إلى الإنسان.

والإنسان الذى يتحدث عنه القرآن ليس مجموعة من الغرائز الدنيا التى يتساوى فيها كل الكائنات التى تتغذى وتنمو وتحس وتتحرك، كما هو الشأن فى المذاهب الحسية.

إن الإنسان سؤال. قد عجزت عن الإجابة عنه جميع المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها على سواء، وليس ذلك دليلًا على علو شأن الإنسان عن أن يفهم حقيقته الإنسانية. وأنت إذا سألت نفسك الآن: من أنا؟ قد تقف عاجزًا عن الإجابة. وقد تلوم نفسك أو تتهم عقلك بالقصور عن الإدراك.. ولكن الحقيقة الكبرى التى ينبغى أن نعترف بها جميعًا هى عظمة الإنسان عن أن يدرك حقيقة أى إنسان ، وهذه المشكلة ليست حديثة العهد ولا هى وليدة العصر، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وقد أعلن الإنسان بنفسه عنها بشجاعة غير معهودة، وعبَّر عن عجزه عن معرفة حقيقته حين ربط معرفة حقيقته بمعرفة حقيقة الرب الخالق، وعبَّر عن إحساسه بهذا العجز

فى عبارة واضحة صريحة حين قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ومن المستقر فى عقول الناس أنه لا يعرف الله إلا الله، وبذلك فقد أعلن الإنسان بنفسه صراحة استحالة معرفة الإنسان للإنسان؛ لأن معرفة الإنسان لحقيقة ربه مستحيلة، وبالتالى فلا سبيل له إلى معرفة حقيقته هذه.

إن حديث القرآن عن الإنسان يكشف لنا عن أمور غائبة عن تصور المفكر المادى الذى اختزل الإنسان فى أنه ظاهرة مادية محسوسة خاضعة لقوانين المادة وأثرها فى سلوكه وتفكيره وتصرفاته.

كما يكشف لنا أيضًا أن الإنسان ليس ظاهرة روحية خالصة، كما هو الشأن فى المذاهب الشرقية.

وأيضًا فإن حديث القرآن عن الإنسان قد أشار إلى أمور فوق مستوى الإدراك الحسى لها، وليس للعقل مدخل إليها إلا بالتلقى عن الوحى. والوحى وحده هو السبيل الوحيد إلى التعرف إلى هذه الحقيقة الغائبة لمفهوم الإنسان وهويته.

فى حديث القرآن عن الإنسان يكشف لنا أن العقل كملكة إدراكية تنقل الإنسان من عالم المادة والتفكير فيها إلى عالم آخر فوق المادة، وأعلى شأنًا من المادة، وقلْ ما شئت عن مستوى هذا العالم الذى يقود العقل الإنسان إلى التفكير فيه والتعايش معه ومجالسته والسير معه، وكأنه محسوس بأدوات الإدراك الحسية، كأنك تتعامل معه بحاسة اللمس، وتراه بعين البصر معاينة حسية، هذا العالم الفوقى هو المجال الخصب الذى يتعامل معه العقل بعيدًا بعيدًا عن عالم الحواس، قد يسمى الفلاسفة هذا

المستوى الفوق من الإدراك ما وراء الطبيعة أو عالم الميتافزيقا، وذلك لعدم خضوعه للمدركات الحسية ولا تناله الحواس بسبب ما، قد سماه القرآن عالم الغيب، وهى أصدق تعبيرًا عنه وأكثر دلالة عليه، وقد زود الله الإنسان بمفتاح اليقين فى التعامل مع هذا العالم والإيمان به يقينًا لا ريب فيه. هذا المفتاح هو الروح التى أحيا الله بها قيمة الإنسان، وجعل له مكانة يسمو بها فوق جميع الكائنات الحسية الموجودة فى هذا العالم. هذه الروح التى أعطاها الله للإنسان فى النفخة الإلهية التى اختصه بها جعلته دون غيره مؤهلًا لوظيفة الاستخلاف فى الأرض ومؤهلًا لأن يحمل الأمانة ويتحمل مسئوليتها.

فالبنية الإنسانية كما تحدث عنها القرآن تمثل مجمعًا بين عالمين: عالم الشهادة ماثلًا فى جسمه، وعالم الغيب ماثلًا فى النفخة الإلهية، التى خصه الله بها، مجمع بين عالمى الفناء والبقاء، بين عالم الخلق وعالم الأمر.

ثم هناك بعد ثالث أشار إليه القرآن الكريم يتمثل فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾[1]. هذا البعد الثالث يمثل إضافة قرآنية لا نجدها فى كل المذاهب الفلسفية التى تناولت الظاهرة الإنسانية بلا استثناء، ولا تنبه إليها عقل مفكر، كما لم تشر إليها كتب الأديان السابقة على الإسلام، كالتوراة والإنجيل. وهذه خاصية قرآنية خالصة، ومن الجدير بالذكر أن الإشارة إليها فى سورة الإنسان قد

(١) سورة الإنسان: ٢.

ناسبت معطيات العقل والعلم فى عصوره المتلاحقة؛ لأنها تفتح بابًا كان موصدًا أمام العقل، لكى يلج منه إلى اليقين بعالم الغيب حين يتأمل ذاته بذاته، وحين يقف الإنسان من ذاته موقف المتسائل عن حقيقته، عن هويته، عن ذاتيته، حيث يقول: من أنا؟ هل أنا مادة خالصة تنتمى إلى عالم الحس وتركيبات المادة كما يقول الماديون؟

هل أنا روح خالصة من شوائب المادة تنتمى إلى عالم آخر غير عالم المادة المحسوسة؟

لقد اختزل التفكير الإنسانى حقيقة الإنسان فى هذين السؤالين (المادة أو الروح) فقط. وهذا موقف لا يلام عليه الإنسان الذى قصر نظره فى واقعه الموجود على ما هو موجود (المادة – الروح)، واختزل حقيقة الوجود الإنسانى فيهما. وتتراوح المذاهب الفلسفية كلها بين هذين الرأيين. وقد يتغلب فى بعض المذاهب الجانب المادى ليطغى تصوره الغالى متمثلًا فى رغبات الجسم وأهواء النفس، فتنكر الجانب الروحى فى الإنسان، وقد يكون العكس كما هو الحال فى بعض الفلسفات الشرقية، وعند بعض الصوفية الذين يجعلون الجسم مطية، وآلة للروح، ولا شأن له بالحقيقة الإنسانية أو جوهر الإنسان.

لكن القرآن الكريم يرشدنا إلى هذا البعد الثالث الذى يشتد أثره فى البنية الإنسانية، كما يظهر ذلك واضحًا فى سلوك الإنسان. قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾[1].

(١) سورة الإنسان: ٢.

والأمشاج التى نبه إليها القرآن تعنى الأخلاط لفظًا ومعنىً، مثل خليط وأخلاط، ومعلوم أن الخليط هو المركب من أكثر من عنصر، والأخلاط جمع خليط، بمعنى أن عناصرها المكونة لها والمركبة منها أكثر وأكثر من الخليط الواحد، وكذلك الأمر بالنسبة لمشيج وأمشاج، فهى مجموعة من العناصر امتزجت ببعضها، وكونت النطفة التى خلق منها الإنسان، والتى أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ وحين يمتزج الجانب المادى بالجانب الروحى، أو إن شئت فقل حين تحل النفخة الإلهية بالجانب المادى فتبعث الحياة فى هذا المشيج أو الخليط الذى يتكون منه خلق جديد ليس بمادة خالصة وليس بروح خالصة، وإنما هو مادة وروح وإضافة جديدة نتجت عن حلول ومزج الجانب المادى بالجانب الروحى ليتشكل منها خلق جديد عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. وهذا المخلوق الجديد هو الإنسان الذى يحتوى فى تكوينه جانبًا ماديًا أرضيًا محسوسًا أكده القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[2] ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[3] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[4].

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) سورة نوح: ١٧.

(٣) سورة طه: ٥٥.

(٤) المؤمنون: ١٢.

كما يحتوى الإنسان فى بنيته وتكوينه الجانب الروحى الذى أكده القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [1]، وتحتوى البنية الإنسانية أيضًا بعدًا ثالثًا (غيبًا) نتج عن حلول الجانب الروحى بالجانب المادى، وهذا البعد الثالث شأنه شأن النفخة الإلهية (الروح) هو من عالم الأمر وليس من عالم الخلق، من عالم الغيب وليس من عالم الشهادة، فلا تتعين مادته بإشارة حسية ولا يدرك بعين البصر.

وهذا البعد الثالث أثر من آثار الروح وعطاء ربانى كائن فى النفخة الإلهية، فالبدن خلق لله، والروح من أمر الله، وأثرها فى البنية الإنسانية من تدبير الله، عبَّر عنه القرآن الكريم بلفظ جامع لكل معانى التدبير والحكمة. قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ [2]، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [3]، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [4]. فالتسوية تدبيره، والروح أمره، والبدن خلقه ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5].

هذا البعد الثالث الذى أشار إليه القرآن له آثاره فى سلوك الإنسان وفى تشكيل نوازعه ومداركه للأمور، ولعل من أبرزها فى الإنسان القوى العاقلة

(١) سورة ص: ٧١- ٧٢.
(٢) سورة الشمس: ٧.
(٣) سورة الانفطار: ٧.
(٤) سورة الحجر: ٢٩.
(٥) سورة الأعراف: ٥٤.

التى خص الله بها الإنسان دون غيره؛ ليدرك بها المعدوم الذى فات. والمستقبل الذى هو آتٍ، وكما عبَّر عنه الإمام الغزالى فى كتابه (مشكاة الأنوار): بأن هذا العقل يستوفى فى إدراكه القريب والبعيد، وهو يعرج فى طرفة عين إلى أعلى السموات رقيًا، وينزل إلى تخوم الأرض هويًا، وهو يتصرف فيما وراء الحجب كتصرفه فى عالمه الخاص ومملكته القريبة منه.

هذه الأبعاد الثلاثة جعلت الإنسان مؤهلًا لأن يحتل قمة الوجود الحسى فى عالم الشهادة، ويتولى خلافتها، ويكون مسئولًا عن عمارتها وحسن سياستها بإعمال السنن الإلهية وقوانينها النافذة فيها، وإدارة شئونها بأوامر خالقها. قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١)، ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢).

والمؤهلات التى زود الله بها الإنسان ليستحق بها الخلافة هذه المكانة لم تمنح لغيره، ولم يتبوأ هذه المكانة فى الاستخلاف والمسئولية مخلوق غيره. وتلك مسئولية تتقاصر دونها الهمم وتتطاول إليها أعناق أولو العزم، وهى المرتبة والمكانة التى اشرأبت إليها نفوس الملائكة وحسدوا الإنسان عليها، وقالوا لربهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فقال لهم: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

هذه الأبعاد الثلاثة جعلت الإنسان – دون غيره – مؤهلًا لأن يتلقى عن السماء خطاب الوحى، فيكون رسولًا ونبيًا. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (١)، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٢)، فكان الإنسان رسولًا نبيًا، وكان الإنسان وليًا لله وعالمًا بالله وعارفًا بالله ومتلقًا ومبلغًا عن الله.

وهذه الأبعاد الثلاثة جعلت الإنسان – دون غيره – جديرًا أن يختصه خالقه بخصائص جعلته مستحقًا لتكريم الخالق له. فخلقه - دون غيره - بيده. قال تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (٣)، وأمر الملائكة بالسجود له دون غيره ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤).

وخصه الخالق - دون غيره - بأن كرمه بأمر إلهى واجب التنفيذ، ولا يجوز إهداره. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (٥)، وخصه سبحانه بأن جعل صورته فى أحسن تقويم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٦)،

(١) سورة الحج: ٧٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٢٤.
(٣) سورة ص: ٧٥.
(٤) سورة ص: ٧١-٧٣.
(٥) سورة الإسراء: ٧٠.
(٦) سورة التين: ٤.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾[1].

هذه الصور المحسوسة لتكريم الله للإنسان منظورة ومرئية ومشاهدة، يراها كل إنسان فى الإنسان صباحًا ومساءً، ولا تقبل التشكيك أو الإنكار، ويقابلها فى الجانب الغيبى خصائص ومميزات زود الله الإنسان بها فى بنيته النفسية حيث سواها سبحانه على نحو خاص، يجعلها صالحة؛ لأن تقود صاحبها إلى الأعلى أو تهوى به إلى الدرك الأسفل، صالحة أن تجعله ملكًا يمشى على الأرض أو تجعله شيطانًا مريدًا. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾[3]، وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾[4]. وخصَّه بأن خلقه فى أحسن صورة ممكنة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾[5].

هذه الأبعاد الثلاثة اكتملت فى بنية الإنسان – دون غيره – لتجعل من هذا الكائن العجيب ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ مؤهلًا بمقتضى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾ أن يتحمل هذه المسئولية الكبرى فى عالم الشهادة (تسخيرًا وتعميرًا وتعبدًا)،

(١) سورة الانفطار: ٧-٨.

(٢) سورة البلد: ١٠.

(٣) سورة الإنسان: ٢-٣.

(٤) سورة الملك: ٢.

(٥) سورة التين: ٤.

التى جعلته مستعدًا حين يتحدث القرآن عن هذا الإنسان العجيب يخاطبه بهذه الخصائص لتولى هذه المسئولية أن القرآن الكريم يضع الإنسان فى مواجهة مباشرة أمام مسئوليته عن هذه الوظائف، وعليك أن تقرأ أسلوب الخطاب القرآنى للإنسان الذى جاء فى صيغ الاستفهام التقريرى المتنوع. وأحيانًا فى أسلوب الاستفهام الإنكارى، وهذا اللون من الخطاب يقتضى مسئولية المخاطب عن موضوع الاستفهام وإقراره بهذه المسئولية، وأحيانًا يأتى الخطاب فى أسلوب تقريرى .. وهذا التنوع فى الاستفهام يدل على ضخامة المسئولية المنوطة بالإنسان: قال تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[1].

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ ﴾[2].

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾[3].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ ﴾[4].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾[5].

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾[1].

---

(١) سورة النبأ: ٦-٨.

(٢) سورة المرسلات: ٢٠.

(٣) سورة البلد: ٨-٩.

(٤) سورة المرسلات: ٢٥-٢٦.

(٥) سورة الأعراف: ١١.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢).

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ (٣).

﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤).

هذا الأسلوب فى الاستفهام يتضمن إقامة الحجة والبرهان على مسئولية الإنسان عما يسأل عنه. إنها أدوات وظيفة الاستخلاف ووسائل وظيفة التعمير .. إنها وظيفة التعبد للخالق. وتلك مسئولية الإنسان وحده – دون غيره – من سائر الكائنات.

٣- ما قبل الوجود:

ولقد بدأ الإعداد لتحمل هذه المسئولية فى وقت مبكر جدًا من مسيرة الخلق ورحلة الوجود الإنسانى، منذ أن بدأ خلق الإنسان من طين، ثم من صلصال من حمأ مسنون. وتلك مرحلة وجودية سابقة على خلق آدم نفسه وممهدة لوجوده ومقدمة لإظهاره بشرًا سويًا على مسرح الأحداث فى عالم الشهادة لتنسل منه ذريته بعد ذلك جيلًا بعد جيل؛ إن طبيعة القبضة التى قبضها الخالق سبحانه من الطين ليتخلق منه آدم، تخلقت فى يده سبحانه بأمره الكونى خلقًا جديدًا صالحًا لأن يتكون منها هذا الكائن العجيب

---

(١) سورة التين: ٤.

(٢) سورة الذاريات: ٢١.

(٣) سورة الشمس: ٧.

(٤) سورة الواقعة: ٥٨.

الإنسان، ثم تأتى المرحلة الثانية مرحلة التناسل البشرى من آدم وذريته من بعده. لتكون أعجب من سابقتها وأكثر حيرة للعقل، ويحكى القرآن مراحل هذا الوجود فى أكثر من آية وفى أكثر من موضع؛ ليذكر الإنسان بأصله الترابى أحيانًا وبالنطفة التى هو منها أحيانًا، وليستدل بوجوده من العدم أولًا على وجوده الثانى أحيانًا، وفى كل هذه المواضع للآيات القرآنية يضع الإنسان أمام مسئوليته عن إدراك هذه الوظائف السابقة؛ لأنه الكائن المسئول عنها دون غيره. وحين نتأمل هذه الأساليب المتنوعة فى خطاب القرآن للإنسان عن الإنسان، وآيات الخالق فى خلقه (من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة) ومراحل هذا الخلق وهو فى بطن أمه تجد العجب العجاب الذى يعجز العقل عن إدراك كنه هذا الموجود العجيب.

فالإنسان ليس له دور فى عملية الإنجاب والتناسل إلا أن يدع نطفته فى مكانها الطبيعى الذى أعده الخالق لتلقى هذه النطفة، ثم تنقطع صلة الإنسان بها تمامًا إلى أن يحين وقت ميلاد الجنين. ولا يدرى الإنسان شيئًا، ماذا يجرى فى داخل هذا المصنع الإلهى عن أطوار خلق الإنسان منذ إيداع النطفة رحم الزوجة إلى تاريخ ميلاده. ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ إن مراحل التكوين التى تمر بها هذه النطفة التى وصفها القرآن الكريم بأنها ﴿ مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[1] لكى تصل إلى مرحلة ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[2]. أقول: إن هذه المراحل تدعو العقل إلى التوقف كثيرًا

(١) سورة السجدة: ٨.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤.

وكثيرًا، ويتأمل مليًّا كيف تطوَّرت هذه النطفة من مرحلة النطفة إلى علقة ثم مضغة ثم تتحول المضغة إلى خلق جديد عظام مكسو باللحم مشحون بوظائف جديدة واستعدادات لم يكن للنطفة عهد بها من قبل.

إن هذه النطفة تمثل حقيقة كبرى واقعة أمام الإنسان فى صباحه ومسائه، وكثيرًا ما يغفل الإنسان عن التفكير والتأمل الذى كلفه القرآن به فى قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ إن هذه الحقيقة الغائبة عن الإنسان تدعوه مليًا أن يتأمل ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فتجمع من هذه النطفة ذكر وأنثى ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [1]. يقول سيد قطب تعليقًا على هذه الآيات: له أن يتأمل حقيقة هذه النطفة ما هى؟ ما حقيقتها؟ ما وظيفتها بين الكثير من السوائل التى يفرزها الجسم؟ إنه يفرز العرق ويفرز الدمع والمخاط. فما دورها بين هذه الإفرازات، ولماذا تكون هى - دون غيرها – الإنسان.. إنها الإنسان الذكر والأنثى كيف تمنى هذه النطفة العجيبة من هذه النطفة.

للإنسان أن يتأمل كيف ومتى تمت هذه البنية المعقدة أشد التعقيد من هذه النطفة؟ أين وكيف يكمن فيها هذا البناء العظمى والجلدى؟

وأين كانت تكمن هذه العروق وحواس الشم والسمع والبصر؟

وكيف كانت كامنة الصفات الخلقية والخلقية؟

(١) سورة النجم: ٤٥- ٤٦.

وأين كانت وكيف كانت تكمن خصائص الذكر والأنثى فى تلك النطفة؟

وكيف سارت هذه الخلايا فى طريقها المرسوم لها دون خلل لتؤدى دورها المعد لها سلفًا؟

وكيف أنها سارت لأداء وظيفتها فى إنتاج نوعها عن طريق التناسل الزوجى؟ إن التأمل فى هذه المسيرة المحددة المنطقية الدقيقة تحمل معها دلالتها على الخالق سبحانه. وفى نفس الوقت ترد وتبطل دعاوى المذاهب العبثية والمادية المنكرة والمتنكرة للمذاهب الإلهية التى تجعل هذه وغيرها برهانًا عقليًا وعلميًا ودليلًا شرعيًا على الإجابة على السؤال المطروح فى الآية: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

إن عظمة هذه التحولات التى تمر بها النطفة والمدد الإلهى لها فى كل مرحلة بوظائف جديدة على المرحلة السابقة تدل على قدرة الصانع وحكمته، كما تدل فى الوقت نفسه على أهمية المسئولية التى يعد لها هذا المخلوق الجديد. إنه بمجرد نفخ الروح فى هذا الكائن الجديد تبدأ آثار الخلق الإلهى فى الإعداد للمسئولية تظهر شيئًا فشيئًا على هذا الجنين، ولا يدرى البشر عنها شيئًا. إن هذه الخلية التى توضع فى رحم المرأة تبدأ - بمجرد إيداعها - فى الانقسامات والتكاثر إلى خلايا لا يحصى عددها إلا خالقها - كما أشار إلى ذلك علماء الأجنة - وإذا بها بعد فترة قصيرة مقسمة إلى مجموعات من الخلايا، لكل مجموعة منها خصائص تختلف عن خصائص المجموعة الأخرى؛ لأن لكل مجموعة وظيفة خاصة بها تختلف عن الأخرى؛ لأنها مأمورة من

خالقها أن تنشئ جانبًا خاصًا فى هيكل الإنسان وتزوده بخصائص جديدة. فهذه مجموعة لخلق العظام، وأخرى تتخلق منها العضلات، وهذه خلايا للجلد وأخرى للأعصاب، وخلايا تتخلق منها العين الباصرة، وخلايا تتخلق منها حاسة السمع، وأخرى للشم، وغيرها للذوق، وأخرى تتخلق منها الغدد بأنواعها. والأكثر عجبًا أن كل خلية تعرف طريقها إلى أداء وظيفتها ولا تخطئ طريقها لأداء مهمتها، كأنها تمسك زمام أمرها كما فطرها على ذلك خالقها، فخلايا الشم تعرف مكانها وكيف تؤدى وظيفتها، وخلايا الذوق وخلايا الإبصار وخلايا السمع لم تخطئ واحدة منها طريقها أبدًا ولم تتخلف أبدًا عن أداء أوامر الخالق لها بأداء وظيفتها. وهذه المهام التى كلفت بها خلايا هذه البنية فى أول خلقها لم يدرك العقل البشرى إلى الآن منها شيئًا، ولم يعرف كيف تتحول من مرحلة إلى مرحلة ولم يدرك كيف تعمل، ولا كيف تؤدى وظائفها، بل مازال العقل البشرى يقف أمام هذه الوظائف عاجزًا مقرًا بقدرة خالقها. ومازال الاستفهام التقريرى فى الآية محركًا لكل ذى عقل سليم أن يتأمل ويتأمل ويقرر ويؤمن بأن وراء هذه الخلايا خالقًا قادرًا حكيمًا ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[1].

ينقل على عزت بيجوفتيش[2] كلامًا لعلماء الفيزياء عن عجائب الصنعة التى توضحها الآية الكريمة السابقة، ويشرح رأيهم فى شكل النطفة تحت المجهر فلا تجد خلافًا بينها وبين نطفة أى حيوان آخر، ويضرب مثلًا لذلك

(١) انظر تعليقات سيد قطب على الآية فى تفسيره لسورة الواقعة حسب الطبعة التى بيدك.
(٢) فى كتابه الإسلام بين الشرق والغرب.

بنطفة الفيل والأسد والحصان وغيرها من الحيوانات الأخرى. لا فرق بين هذه وتلك تحت المجهر. كلها سائل مخاطى يحتوى على الألوف من الحيوان المنوى. ثم يتساءل العالم: إذا لم يكن هناك فارق بين هذه الأنواع تحت المجهر فكيف يتم تخليق الفيل والحصان والأسد من هذه النطفة التى لا تفترق واحدة منها عن الأخرى تحت المجهر. ولا فارق فى الشكل الظاهرى بين هذه الأنواع ونطفة الإنسان. كيف تظهر من نطفة الفيل خصائص هذا الحيوان الضخم بشكله المعروف وأطرافه المعهودة؟ وكيف تكون هذه الخصائص بشكلها الضخم كامنة فى هذه النطفة؟ كيف تتكاثر هذه الخلية لتتكون منها مجموعات الخلايا المشكلة للحس والأعصاب والعظم من هذه الخلية الواحدة؟ وأين وكيف تكمن هذه المجموعات فى النطفة؟

فإذا نظرت فى نطفة الأسد أو نطفة الحصان وتساءلت عن الخصائص المميزة لكل منهما، وأين تكمن فى نطفة كل منهما؟ وكيف تظهر فى بنية الحيوان؟ وكيف تتكون خاصية الافتراس فى الأسد وصوت الصهيل فى الفرس؟ وكيف تتعرف كل خلية فى هذه النطفة على مكانها فى بنية الحيوان ولا تخطئ طريقها إليه؟ وقد تشترك نطفة الإنسان فى كثير من الخصائص البيولوجية مع غيرها من أنواع الحيوان، خاصة ما يتعلق بالنمو الجسدى لكن فى مرحلة تالية من النمو نجد أن الخالق سبحانه يظهر آياته فى التمايز بين هذه الأنواع بظهور خصائص كل منها المميزة لها شيئًا فشيئًا. وتنفرد كل منها بخصائصها طورًا بعد طور، ولك أن تتخيل خصائص الفيل الكامنة فى نطفته، وهى تبدأ فى الظهور مرحلة بعد مرحلة. تخيل شكل الفيل .. أُذن

الفيل .. سِن الفيل .. خف الفيل .. جسم الفيل .. وكيف تكمن هذه الخصائص فى نطفته ثم تظهر شيئًا بعد شيء، دون أن تخطئ واحدة منها طريقها.

وتخيل صفة الافتراس الكامنة فى نطفة الأسد وصفات الفرس وخصائصه فى شكله الجسدى.

هذه كله خصائص تتصل بأشكال هذه الحيوانات وجسدها، وسبحان من هيأ النطفة وجعلها مؤهلة ومستعدة لكى يخرج من كل منها الكائن الخاص بها بصفاته وخصائصه المميزة. أما نطفة الإنسان فإن لها بالإضافة إلى ما سبق شأنًا آخر ينفرد بها ويعلو بها عن أنواع الكائنات الأخرى علوًا كبيرًا. اقرأ فى أول سورة المؤمنون مراحل تكوين هذه النطفة البشرية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

هذه النشأة الخاصة انفرد بها الإنسان بعد النفخة الإلهية نتيجة التأهيل الإلهى السابق للنفس الإنسانية وتسويتها على نحو جعلها مؤهلة دون غيره لأداء الوظائف الوجودية المرتبطة بوجود الإنسان دون غيره. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ

(١) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [2]، وقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [3]. هذه الآيات التى تتحدث عن النفس الإنسانية وما حباها الله من استعدادات مختلفة لأداء الوظائف العضلية والخلقية التى تقوم بها، وهذه الخلقة التى عبَّر عنها القرآن بعبارة التعجب التى تثير الفخر والإعجاب فى ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

ينقل سيد قطب فى (ظلال القرآن) عن مجلة العلوم الإنجليزية ناقلًا عن (الله يتجلى فى عصر العلم): كيف تمتد اليد بحركة ما لأداء فعل ما كأن تقلب صفحة كتاب تقرأه أو ترفع كوبًا من الماء إلى الفم لكى تشربه، أو تضع لقمة طعام فى فمك لتأكله، هل فكرت فى حركة الأصابع كيف تعمل وهى تقلب صفحات الكتاب أو حين ترفع كوب الماء إلى فمك؟

وحركة استقبال الأذن للأصوات الخارجية أمر صعب على العقل أن يتخيل كيف يتم ذلك الفعل العجيب. هل تعلم أن هذه العملية تقوم بها سلسلة مكونة من أربعة آلاف (قوس) معقدة متدرجة بنظام عجيب فى الحجم والشكل، وأن هذه الأقواس أشبه بالآلات الموسيقية ومعدة بحيث تنقل الأصوات التى تلتقطها من الخارج إلى المخ؛ ليقوم بترجمتها بطريقة عجيبة

(١) سورة الانفطار: ٦-٨.

(٢) سورة الشمس: ٧-٨.

(٣) سورة التين: ٤.

إلى معانى وأفكار يصوغها فى قوالب لفظية منسجمة أو أنغام موسيقية، وهل تعلم أن حاسة الإبصار فى العين تحتوى على مائة وثلاثين مليون من مستقبلات الضوء، وهى أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يحميها ليلًا ونهارًا وفى النوم واليقظة بحركة لا إرادية تقى العين من الأتربة والذرات والأجسام الغريبة.

إن جهاز الذوق فى الإنسان هو اللسان ويؤدى عمله التذوق بواسطة مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلمات غشاء اللسان المخاطى، ويغذيها حلمات فروع من العصب اللسانى البلعومى ... ومن تمام حكمة الخالق، إن هذا العصب موجود فى أطراف اللسان فى أول الفم، حتى يتمكن الإنسان من الإحساس بالأشياء الضارة فيلفظها بسرعة قبل أن تصل إلى البلعوم، كالإحساس بالأشياء لساخنة جدًا أو الباردة جدًا أو المرة أو العفنة ... الخ.

وأما الجهاز العصبى الذى يسيطر على الجسم سيطرة كاملة فيتكون من شعيرات دقيقة جدًّا تمر فى أنحاء الجلد المحيط بجسم الإنسان، وتتصل من جهة أخرى بخلايا عصبية أكبر منها، وهذه بدورها تتصل بالجهاز المركزى العصبى، فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم بمؤثر خارجى، ولو كان بسيطًا كدرجة الحرارة أو البرودة، فإن هذه الشعيرات تنقل هذا الإحساس بشكل سريع إلى مراكز الأعصاب المنتشرة فى الجسم لتقوم بدورها فى توصيل هذا الإحساس إلى المخ ليتصرف المخ بإصدار الأمر المناسب لوقاية الجسم من ذلك.

فإذا انتقلنا إلى الجهاز الهضمى – مازال الحديث نقلًا عن (الله يتجلى فى عصر العلم) – سوف يفاجئنا معمل كيميائى فى داخل الجسم لا نجد له نظيرًا فى أى معمل بشرى صنعته يد كبار الكيميائيين، فإن الطعام يدخل المعدة غفلًا من أى قيد ولا شرط إلا تذوق الإنسان له واستمتاعه به، فتأكل شرائح اللحم أو السمك أو الخضروات والفواكه، ولا ندرى ماذا يفعل المعمل الكيميائى من داخل المعدة. ولكن لاحظ العلماء أن المعمدة تقوم باختيار النافع من هذا الطعام حتى يفيد منه الجسم دون بقية الفضلات التى تتخلص منها بعملية الإخراج، ثم تقوم بتصنيع الذى احتفظت به على هيئة بروتينات تصبح غذاءً للخلايا، وتختار أداة الهضم (الجير والكبريت واليود والحديد) بمقادير معينة، وتخزن الدهن والمواد الاحتياطية لوقت الحاجة الضرورية الطارئة. وحين تتحلل هذه الأطعمة وتعد إعداد جديدًا صالحًا لإمداد الخلايا بحاجتها تقدم تلقائيًا كغذاء للخلايا بحسب حاجتها وبحسب ما يلزم لأداء وظيفتها؛ حيث تتحول فى الخلية إما إلى عظام أو أظافر، أو لحم أو شعر أو أسنان أو عيون ... الخ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

يقول المؤلف: فهاهنا إذن معمل كيميائى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء البشر، وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع فى العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى الدقة وحسب الطلب، وبمقتضى الأداء الوظيفى لكل خلية، فلا تخطئ واحدة منها فى طلبها، ولا مجال هناك للصدفة أو العبث.

وهذه الأجهزة الميكانيكية يشترك فيها مع الإنسان بقية الحيوانات ولو بصورة ما، لكن تبقى للإنسان خصوصية ينفرد بها هى موضع التكريم والامتنان إنها خاصية النفخة الإلهية، خاصية العقل والروح، خاصية ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾. خاصية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ خاصية الإدراك العقلى الذى تعلقت مسئولية الإنسان عن أداء وظائفه الوجودية[1]. هذه الخاصية التى يدرك الإنسان كنهها، ولا كنه أدائها الوظيفى فى الإنسان هو العقل، والعقل لا يدرك كنه ذاته، ولا كيف يعمل، ثم هناك القبس الإلهى الأعظم فى بنية الإنسان من تلك الروح التى اختص الله بعلمها، وحجب العلم بها عن النبى المرسل فضلًا عن سائر البشر ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[2]. هذا الأمر الإلهى هو المنة الكبرى التى صار بها الإنسان إنسانًا، هذه الروح التى أشرقت أنوارها على الجسد الترابى فجعلت منه إنسانًا يسمع ويبصر ويتكلم ويعقل ويتذكر ويعلم ويحب ويكره ويخاف ويحزن ويفرح. إنه الإنسان وليس كائنًا آخر. ليس ملكًا مبرأ من عالم المادة، وليس شيطانًا ماردًا ينتمى إلى عالم غير محسوس. إنه الإنسان الذى قالت عنه الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فقال الله لهم: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3]. إن الإعداد الإلهى لهذا الإنسان بكل هذه الملكات التى

(١) انظر الظلال ج٣٠ ص٣٨٤٥-٣٨٥٠ سورة الانفطار.

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

اختزنتها النفس وأشرقت بها الروح فى جنبات الجسم كان أمرًا مقضيًا لله لأداء الوظيفة التى كلفه الخالق بها، إنها الأمانة التى أبت الكائنات الأخرى أن تنهض بها، وحملها الإنسان وحده ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1].

إن النظر العقلى فى بنية الإنسان فى ضوء هذه المعانى السابقة هو أكبر دليل علمى برهانى قرآنى على نفى القول بالصدفة فى تفسير نظرية الخلق الأول، ودليل علمى وبرهانى وقرآنى على الإيمان بالخلق الثانى (البعث). وفى كلا الدليلين تتجلى مظاهر الصفات الإلهية من العلم والقدرة والإرادة والحكمة ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2].

أ.د/ محمد السيد الجليند

١٦ محرم ١٤٣٤هـ

٣٠ نوفمبر ٢٠١٢م

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) سورة الأعراف: ٥٤.

رسالة فى عيوب النفس ودواؤها

للإمام أبى عبد الرحمن السلمى

(٣٢٥-٤١٢هـ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذى عرَّف أهل صفوته عيوب أنفسهم، وأكرمهم بمطالعة عيوبها، وجعلهم أهل اليقظة والانتباه لموارد الأحوال عليهم، ووفقهم لمداوات عيوبها ومكامن شرورها بأدوية تخفى إلا على أهل الانتباه، فسهل عليهم من ذلك التيسير بفضله وحسن توفيقه. وبعد.

فقد سألنى بعض المشايخ أكرمه الله بمرضاته، أن أجمع فصولًا فى عيوب النفس يستدل به على ما وراءها، فأسعفته بطلبته، وجمعت له هذه الفصول التى أسأل الله تعالى ألا يعدمنا بركتها، وذلك بعد أن استخرت الله فيه واستوفقته، وهو حسبى ونعم الوكيل.

والصلاة على نبيه الكريم وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾(٣) وغير هذا من الآيات ما يدل على شرور النفس وقلة رغبتها فى الخير. أخبرنا على ابن عمر، وقال: حدثنا عبد الجبار بن شيراز، قال: حدثنا أحمد بن الحسن بن أبان، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا شعبة وسفيان، عن سلامة بن كهل،

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) سورة النازعات: ٤٠.

(٣) سورة الجاثية: ٢٣.

عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: «البلاء والهوى والشهوة معجونة بطينة آدم»[1].

١ - فمن عيوب النفس، أنه يتوهم أنه على باب نجاته يقرع الباب بفنون الأذكار والطاعات، والباب مفتوح، ولكنه أغلق باب الرجوع على نفسه بكثرة المخالفات، كما أخبرنى الحسن بن يحيى قال: سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت ابن مسروق يقول: مرت رابعة[2] بمجلس صالح المرى فقال صالح: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له؟

فقالت رابعة: الباب مفتوح وأنت تفر منه، كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق منه فى أول قدم؟

فكيف ينجو العبد من عيوب نفسه وهو الذى أطلق لها الشهوات؟ أم كيف ينجو من أتباع الهوى وهو لا ينزجر عن المخالفات؟

---

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ٣٩٣/٢. قال الذهبي: هذا من بلايا أحمد بن الحسن.

(٢) هى رابعة بنت إسماعيل العدوية (أم الخير) مولاة آل عتيك البصرية، مشهورة بزهدها وورعها بين رجالات التصوف، ولدت بالبصرة، وتوفيت بالقدس سنة ١٣٥هـ. يعتبرها الصوفية من رواد الطريق، واشتغلت بالعلم والتلقين للمريدين، كان يقصدها المعاصرون من أهل التصوف ليأخذوا عنها، روى عنها رجال التصوف كثيرًا من المرويات فى مؤلفاتهم، مثل الحلية للأصفهانى، واللمع للسراج، والشعرانى فى طبقاته، ولها مذهبها الخاص فى المحبة، تأثر بها كثيرون من المتصوفة، واعتبرها الدكتور/ عبد الرحمن بدوى من الشخصيات القلقة فى الإسلام، وكتب عنها كثيرًا فى كتابه الموسوعة بالاسم السابق. انظر عنها: وفيات الأعيان: ١٨٤/١، الدر المنثور: ص٢٠٢، الشريشى: ٢٣١/٢، الأعلام: ٣١/٣.

سمعت محمد بن أحمد بن حمدان يقول: سمعت محمد بن إسحاق الثقفى يقول: سمعت ابن أبى الدنيا[1] يقول: قال بعض الحكماء: لا تطمع أن تنجو وفيك عيب، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب، ومداواة هذه الحالة بما قاله سرى السقطى[2] وهو سلوك سبيل الهدى، وطيب الغذاء، وكمال التقى.

٢- ومن عيوبها إذا بكت تفرجت به واستروحت.

ومداواتها: ملازمة الكمد مع البكاء حتى لا يفزع إلى الاسترواح، فهو أن يبتلى فى الحزن ولا يبكى من الحزن [خير من أن][3] يستروح من بكائه، ومن بكى فى الحزن يزيده البكاء كمدًا وحزنًا[4].

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبى الدنيا القرشي الأموى، ولد سنة ٢٠٨هـ، وتوفي سنة ٢٨١هـمن الحفاظ المعروفين بالحديث، له تصانيف كثيرة فى الزهد والرقائق، ذكر معظمها الذهبى فى تاريخه، بلغت ١٤٦ مصنفًا، معظمها يتصل بالنفس وآدابها والأخلاق والزهد مما جعله مرجعًا لأقوال الصوفية والاستشهاد بمروياته، واشتغل بالوعظ، وعرف به. انظر عنه: الفهرست لابن النديم: ١٨٥/١، تاريخ بغداد: ٨٩/١٠، طبقات ابن أبى يعلى: ١٩٢/١، دائرة المعارف الإسلامية: ٧٢/١، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان: ٢٤٧/١، الأعلام: ٢٦٠/٤.

(٢) هو أبو الحسن سرى السقطى بن المغلس، وهو من رجال الطبقة الثانية. قيل: إنه خال الجنيد وأستاذه، لازم معروف الكرخى من كبار الصوفية فى عصره، يعده الصوفية من أوائل من تكلموا فى الأحوال ببغداد، وهو شيخ البغدادين فى عصره، توفى سنة ٢٥١هـ، أخذ عنه الجنيد وسمع منه كثيرًا من المرويات، سئل عن العقل ما هو؟ فقال: ما قامت به الحجة على مأمور ومنهى، وقال: من لم يعرف قدر النعمة سلبها من حيث لا يدرى من علاقة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، من خاف الله خافه كل شيء، من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله. انظر عنه: طبقات الصوفية، ط الشعب: ص١٤.

(٣) ما بين المعقوفين ليس بالأصل، وزيدت لحاجة المعنى إليها.

(٤) أخذ بعض الصوفية بتطبيق هذا المعنى فى سلوكهم، وكان يميل إلى هذا المنهج الحسنُ البصرى. والقصد من الحزن هنا هو الندم على ما فرط فى الطاعات وما ارتكب من =

٣- ومن عيوبها استكشافه الضر ممن لا يملكه، ورجاؤه ممن لا يقدر عليه، واهتمامه بالرزق وقد تكفل له بالرزق.

ومداواتها: الرجوع إلى صحة الإيمان بما أخبر الله فى كتابه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[1] الآية، وإلى قوله: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] ويصح له هذا الحال إذا نظر إلى ضعف الخلق وعجزهم، فيعلم أن كل من يكون محتاجًا لا يقدر على قضاء حاجة غيره، ومن يكون عاجزًا لا يمكنه أن يصلح أسباب غيره، فيسلم من هذه الخطيئة، ويرجع إلى ربه بالكلية.

٤- ومن عيوبها فترتها فى حقوقٍ كان يقوم بها قبل ذلك، وأتم منه عيبًا من لا يهتم بتقصيره وفترته، وأكثر من ذلك عيبًا من لا يرى فترته وتقصيره، ثم أكثر منه عيبًا من يظن أنه متوفر مع فترته وتقصيره، وهذا من

= الذنوب والسيئات. وقد روى السلمى فى الطبقات عن يحيى بن معاذ عن جابر أن رسول الله ﷺ كان دائم التفكير، طويل الأحزان، قليل الضحك إلا أن يبتسم. وقد روى عن أبى الدرداء عن الرسول ﷺ: «أن الله يحب كل قلب حزين» روى ذلك ابن حنبل والحاكم فى المستدرك والطبرانى فى المعجم الكبير، ومن المفيد أن ننبَّه هنا إلى أن ذلك الاتجاه ليس مسلكًا لكل الصوفية، فإن الكثير منهم لا يميل إلى الأخذ بهذا المنهج فى السلوك. انظر الطبقات للسلمى ص٢٦.

(١) سورة يونس: ١٠٧.

(٢) سورة هود: ٦.

قلة شكره فى وقت توفيقه للقيام بهذه الحقوق، فلما قل شكره أزيل من مقام التوفير إلى مقام التقصير، ويستر عليه نقصانه، واستحسن قبائحه، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[1].

والخلاص من ذلك داوم الالتجاء إلى الله تعالى وملازمة ذكره، وقراءة كتابه، والبحث عن مطمعه، وتعظيم حرمة المسلمين، وسؤال أولياء الله الدعاء له بالرد إلى الحالة الأولى؛ لعل الله تعالى أن يمنَّ عليه بأن يفتح عليه سبيل خدمته وطاعته.

٥- ومن عيوبها أن يطيع ولا يجد لطاعته لذة، ذلك لشوب طاعته بالرياء، وقلة إخلاصه فى ذلك، أو ترك سنة من السنن.

ومداواتها: مطالبة النفس بالإخلاص، وملازمة السنة فى الأفعال، وتصحيح مبادئ أموره يصح له منتهاها.

٦- ومن عيوبها أن يرجو لنفسه الخير فى حصول مشاهد الخير.

ولو تحقق به لأبسر[2] أهل المشهد من شؤم حضوره، كما قيل لبعض السلف: كيف رأيت أهل الموقف؟ فقال: رأيت أقوامًا لولا أنى كنت معهم لرجوت الله أن يغفر لهم. هكذا طريق أهل اليقظة.

---

(١) سورة فاطر: ٨.

(٢) من بسر الرجل إذا كلح وجهه من شدة العبوس وكثرته، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ [المدثر:٢٢] راجع مادة بسر فى لسان العرب.

ومداواتها: أن يعلم أن الله وإن غفر له ذنوبه فقد رآه مرتكسًا[1] على الخطايا والمخالفات، يستحي من ذلك ويسيء بنفسه الظن، كما قال الفضيل بن عياض[2]: واسوأتاه منك وإن قرت. وذلك بتحققه بعلم الله منه ونظره إليه.

٧- ومن عيوبها أنك لا تحييها حتى تميتها؛ أى لا تحييها للآخرة حتى تميتها عن الدنيا، ولا تحيا بالله حتى تموت عن الأغيار.

ولذلك قال يحي بن معاذ[3]: من تقرب إلى الله بشق نفسه حفظ الله

---

(١) من ركس وارتكس، والركس - بكسر الراء - هو جعل الشيء مقلوبًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: ٨٨] أى ردهم إلى كفرهم.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى، بدأ به السلمى كتابه الطبقات، فجعله أول رجال الطبقة الأولى، وهو من مدينة مرو، من قرية يقال لها: (فندين)، ولد بسمرقند، ونشأ بأبيود من بلاد تركستان، وتوفى بمكة سنة ١٨٧هـ فى شهر المحرم، أسند الحديث إلى رسول الله ﷺ. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للدنيا، يا دنيا، مرى على أوليائى، ولا تحلولى لهم، فتفتنيهم».

روى عن الصوفية كثيرا من المأثورات، عرف بزهده وورعه، واشتغاله بالقرآن وعلومه، وله آراؤه فى مسائل الفروع التى استدل بها كثير من العلماء المتأخرين. ومن مأثوراته: لم تتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال. وقال: لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له حاجة إلى الخلق، وينبغى أن يكون حوائج الخلق كلهم إليه. راجع طبقات الصوفية: ص٩.

(٣) يحي بن معاذ: هو يحي بن معاذ (جعفر الرازى) من رجال الطبقة الأولى فى التصوف، نشأ فى بيت عرف بالزهد، كان أوسط إخوته، اشتغل بالوعظ، ارتحل إلى بلخ مع أخيه إبراهيم، ولما مات أخوه فى السفر عاد يحي إلى نيسابور وأقام بها حتى مات سنة ٢٥٨هـ. قيل: إنه =

عليه نفسه، وذلك أن يمنعها عن شهواتها، ويحملها على مكارهها، فإن النفس لا تألف الحق أبدًا.

ومداواتها: السهر، والجوع، والظمأ، وركوب مخالفة الطبع والنفس، ومنعها عن الشهوات.

سمعت محمد بن إبراهيم بن الفضيل يقول: سمعت محمد بن الرومى يقول: سمعت يحيي بن معاذ يقول: الجوع طعام به يقوى الله أبدان الصديقين.

٨- ومن عيوبها أنها لا تألف الحق أبدًا. والطاعة خلاف سجيتها وطبعها، ويتولد أكثر ذلك من متابعة الهوى واتباع الشهوات.

ومداواتها: الخروج منها بالكلية إلى ربها، كما سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول: سمعت أبا القاسم البصرى ببغداد يقول: سئل ابن شادان عن العبد إذا خرج إلى الله على أى أصل يخرج؟ قال: على ألا يعود إلى ما منه خرج، وحفظه عن ملاحظة ما يبدو منه إلى الله.

= روى الحديث عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «التقوى كرم الخلق وطيب المأكل»، وعن جابر قال: كان رسول الله ﷺ دائم التفكير، طويل الأحزان، قليل الضحك إلا أن يبتسم» روى عنه الصوفية كثيرًا من المأثورات فى مصنفاتهم. ومن أقواله: ثلاث خصال من صفات الأولياء: الثقة بالله فى كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه فى كل شيء، بقدر حبك لله يحبك، وبقدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل فى أمرك الخلق، من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون الأشياء كلها بالنظر إليه. انظر عنه: الطبقات للسلمى: ص٢٦-٢٧، العروس على شرح الرسالة القشيرية: ١١٩/١، صفة الصفوة: ٧١/٣-٨٠، الأعلام: ٢١٨/٩.

فقلت: هذا حكم من خرج عن وجود. فكيف حكم من خرج عن عدم؟

فقال: وجود الحلاوة فى المستأنف عوضًا عن المرارة فى السالف.

٩- ومن عيوبها أنها تألف الخواطر الردية فتستحكم عليها المخالفات.

ومداواتها: رد تلك الخواطر فى الابتداء لئلا تستحكم، وذلك بالذكر الدائم، وملازمة الخوف بالعلم أن الله يعلم ما فى سرك، كما يعلم الخلق ما فى علانيتك، فتستحى منه أن تصلح للخلق موضع نظرهم ولا تصلح موضع نظر الحق. وقد قال النبى ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١].

وسمعت أبا بكر الرازى يقول: سمعت الحسن العلوى صاحب إبراهيم الخواص[٢] يقول: سمعت إبراهيم يقول: أول الذنب الخطرة، فإن تداركها

---

(١) جزء من حديث صحيح متفق عليه، رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب، وبدأ به البخارى صحيحه كتاب بدء الوحى، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الإمارة، وأبو داود فى سننه كتاب الطلاق، وابن ماجه فى سننه كتاب الزهد.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل الخواص من رجال الطبقة الثالثة، كان أوحد المشايخ فى عصره، عاصر الجنيد والنووى. وهو من أصحاب المقامات، توفى سنة ٢٩١هـ. قيل: إنه دخل الماء مرة ليغتسل قبل الصلاة كعادته، فخرجت روحه وهو وسط الماء. ترجم له السلمى فى الطبقات والشعرانى فى اليواقيت والجواهر. وورى عنه السلمى كثيرًا من المأثورات، ومن مأثوراته: من لم يصبر لم يظفر. وقال: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، خلاء البطن، قيام الليل، التضرع عند السحر، مجالسة=

صاحبها بالكراهية؛ وإلا صارت وسوسة، فإن تداركها صاحبها بالمجاهدة وإلا هاج منها الشهوة مع طلب الهوى، فغطى العقل والعلم والبيان.

١٠- ومن عيوبها اشتغالها بعيوب الناس وعماها عن عيبها.

ومداواتها: فى الأسفار، والتقطع، ومحبة الصالحين، والائتمار بأوامرهم، وأقل ما فيه إذا لم يعمل فى مداوات عيوب نفسه أن يسكت عن عيوب الناس ويعذرهم فيها، ويستر عليهم خزاياهم رجاء أن يصلح الله بذلك عيوبه، فإن النبى ﷺ قال: «من ستر على أخيه المسلم ستر الله عورته، ومن تبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، حتى يفضحه فى جوف بيته»[1].

سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول: سمعت شاذان يقول: سمعت زيد بن المدائنى يقول: رأيت أقوامًا من الناس لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فستر الله عيوبهم، وزالت عنهم تلك العيوب، ورأيت أقوامًا لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس، فصارت لهم عيوب.

١١- ومن عيوبها الغفلة، والتوانى، والإصرار، والسؤال، وتقريب الأمل، وتبعيد الأجل.

= الصالحين. وقال: على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه، ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين. راجع عنه: الطبقات: ص٦٨.

(١) ورد الحديث بلفظ مختلف فى: صحيح البخارى كتاب المظالم، وصحيح مسلم كتاب البر، وسنن أبى داود كتاب الأدب، وسنن الترمذى كتاب الحدود، وسنن ابن ماجه فى المقدمة، وفى مسند ابن حنبل ٢٧٦/٥ «من طلب عورة أخيه طلب الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله» وقال الترمذى: حسن غريب. انظر: ١٨١/٦ من تحفة الأحوذى.

ومداواتها: ما سمعت الحسين بن يحيي يقول: سمعت جعفر الحلوى يقول: سئل الجنيد[1] كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله؟ فقال: بتوبة تقل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على قصد مسالك العمل، وذكر الله على اختلاف الأوقات، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها عن الأمل. قيل: فبمَ يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب متفرد فيه توحيد مجرد.

١٢- ومن عيوبها رؤيتها الشفقة عليها.

ومداواتها: رؤية فضل الله عليه فى جميع الأحوال يسقط عنه رؤية[2] النفس. سمعت أبا بكر الرازى يقول: سمعت الواسطى[3] يقول: أقرب شيء

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخراز الملقب بالقواريرى؛ لأن والده كان يبيع الزجاج، نشأ بالعراق، من رجال الطبقة الثانية، درس الفقه على أبى ثور، عاصر السرى السقطى، والمحاسبى، والحلاج، كان من أتم القوم وساداتهم، لقبه الصوفية بسيد الطائفة، وكان ملتزمًا فى منهجه الصوفى بالسنة، جمع بين الحقيقة والشريعة فى مذهبه، كان له موقفه الرافض لأصحاب الحلول والاتحاد، وكان ميزان القبول والرفض عنده هو عرض الأقوال والأفعال على الكتاب والسنة. توفي سنة ٢٩٧هـ، وقيل: ٢٧٩هـ. انظر عنه: طبقات الصوفية للسلمى: ص١٥٥-١٦٣، الطبقات الكبرى للشعرانى: ١/٨٢-٨٤، تاريخ بغداد: ٧/٢٤١-٢٤٩، دقائق التفسير لابن تيمية: ٢/٤٢٦ هـ١، الأعلام للزركلى: ٢/١٣٧-١٣٨، صفة الصفوة: ٢/٢٣٥-٢٤٠، وفيات الأعيان: ١/٣٢٣-٣٢٥، شذرات الذهب لابن العماد: ٢/٢٢٨-٢٣٠، طبقات الشافعية: ٢/٢٦٠-٢٦٥، من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة للمحقق: الفصل الثانى والثالث.

(٢) فى الأصل: ورثة.

(٣) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى، أصله من فرغانة، من أصحاب الجنيد، عده السلمى من رجال الطبقة الثالثة، كان عالمًا بالأصول وعلم الظاهر، مات بمرو سنة ٣٢٠هـ، وأكثر مأثوراته أنه قالها بمرو لطول إقامته بها، لم يعرف عنه شيء من الغلو أو القول بالحلول =

إلى مقت الله رؤية النفس وأفعالها.

١٣- ومن عيوبها الاشتغال بتزيين الظواهر، والتخشع من غير خشوع، والتعبد من غير حضور.

ومداواتها: الاشتغال بحفظ الأسرار لتزين أنوار باطنه أفعال ظاهره، فيكون مزينًا من غير زينة، مهيبًا من غير تبع، عزيزًا من غير عشيرة، ولذلك قال النبي ﷺ: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[١].

١٤- ومن عيوبها طلب العوض على أعمالها.

ومداواتها: رؤية تقصيره فى عمله، وقلة إخلاصه، فإن الكبير فى عمله من أعرض عن طلب الأعواض[٢] أدبًا وتورعًا عنه صرفًا، عالمًا بأن الله قدر له بيته دنيا وآخرة، وأن الذى عليه لا يخرجه منه الإخلاص.

١٥- ومن عيوبها فقدان لذة الطاعة، وذلك من سقم القلب وخيانة السر.

= والاتحاد، وقيل: إنه كان من المتسنين الملتزمين، ومن أقواله: ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوى المروءة. الخوف والرجاء زمامان يمنعان سوء الخلق. راجع طبقات الصوفية: ص٧٢-٧٣.

(١)الإخلاص والنية لابن أبى الدنيا: ص٥٤.

(٢) فى الأصل: الأعراض. وهذا المعنى أشارت إليه رابعة فى المأثورات عنها أنها كانت تقول فى مناجاتها لله: إن كنت أعبدك طمعًا فى جنتك فاحرمنى منها، وإن كنت أعبدك خوفًا من نارك فاصلنى بها، وإن كنت أعبدك حبًّا لذاتك فلا تحرمنى رؤية ذاتك. وهذا المعنى موجود لدى كثير من السالكين لطريق الصوفية. راجع ما دونته كتب التراجم السابق ذكرها فى ترجمتنا لرابعة العدوية، خاصة اليواقيت والجواهر للشعرانى، والحلية لأبى نعيم.

ومداواتها: أكل الحلال، ومداومة الذكر، وخدمة الصالحين، والدنو منهم، والتضرع إلى الله تعالى فى ذلك؛ ليمنَّ على قلبه بالصحة بزوال ظلمات الأسقام، فيجد عند الذكر لذة الطاعة.

١٦- ومن عيوبها الكسل؛ وهو ميراث الشبع، فإن النفس إذا شبعت قويت، فإذا قويت أخذت بحظها، وغلبت القلب لوصلها إلى حظها.

ومداواتها: التجويع، فإنها إذا جاعت عدمت حظها، وضعفت، فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة، وأسقط عنها الكسل؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «ما ملأ آدمى وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولابد ثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»[(١)].

١٧- ومن عيوبها طلب الرياسة بالعلم، والتكبر، والافتخار به، والمباهاة على أبناء جنسه.

ومداواتها: رؤية منَّة الله عليه فى أن جعله وعاء لأحكامه، ورؤية تقصير شكره من نعمة الله عليه بالعلم والحكمة، والتزام التواضع، والانكسار، والشفقة على الخلق، والنصيحة لهم، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو ليصرف

(١) ورد الحديث فى سنن الترمذى كتاب الزهد، ومسند ابن حنبل: ١٣٢/٤، ويوجد فوق كلمة (للنفس) إشارة فى الهامش كتب فى مقابلها كلمة: هذا وكلمة: بدل. ثم شطب على كلمة غير مقروءة.

به وجوه الناس إليه؛ فليتبوأ مقعده فى النار»[1]. ولذلك قال بعض السلف: من ازداد علمًا فليزدد[2] خشية، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[3]. وقال رجل للشعبى: أيها العالم. فقال: إنما العالم من يخشى الله.

١٨- ومن عيوبها كثرة الكلام، وإنما يتولد ذلك من شيئين، إما طلبه رياسة يريد (أن)[4] يرى الناس علمه وفصاحته، أو قلة العلم بما يجلب عليه الكلام.

ومداواتها: تحقيقه بأنه مأخوذ بما يتكلم به، وأنه مكتوب عليه، ومسئول عنه لابد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[6] وقال النبى ﷺ: «البلاء موكل بالمنطق»[7]. وقال: «وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[8]. وقال عليه السلام: «كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما أمر

(١) ورد الحديث فى سنن الترمذى كتاب العلم، ورواه أبو داود فى سننه فى المقدمة، وابن ماجه فى سننه فى المقدمة، وابن حنبل فى المسند: ١٦٠/١.

(٢) فى الأصل: فليزداد.

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

(٤) ليست بالأصل، وزيدت لحاجة السياق إليها.

(٥) سورة الانفطار: ١٠-١١.

(٦) سورة ق: ١٨.

(٧) روى البخارى فى صحيحه: «إن زنا اللسان النطق». انظر: كتاب القدر فى الصحيح.

(٨) رواه الترمذى فى سننه كتاب الإيمان، كما رواه غيره من أصحاب السنن عن معاذ بن جبل، وقد قال عنه ابن رجب الحنبلى: أن سنده فيه انقطاع، راجع: شرح ابن رجب الحنبلى على الأربعين.

بمعروف أو نهى عن منكر»[1]. قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

١٩- ومن عيوبها أنها (إذا)[3] رضيت مدحت الراضى عنها فوق الحد، وإذا غضبت ذمته وتجاوزت الحد.

ومداواتها: رياضة النفس على الصدق والحق؛ حتى لا تتعدى فى مدح من رضى عنها، ولا فى ذم من سخط، فإن أكثر ذلك من قلة المبالاة فى الأوامر والنواهى، يقول النبى ﷺ[4]: «احثوا فى وجوه[5] المادحين التراب»[6].

٢٠- ومن عيوبها أنها تستخير الله تعالى فى أفعالها، ثم تسخط فيما يختار لها.

ومداواتها: أن يعلم أنه يعلم من الأشياء ظواهرها، والله يعلم بواطنها وحقائقها، فإن حسن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، فما اختاره منه لنفسه حالًا إلا قنوطًا ببلاء، ويعلم انه مدبر لا مدبر سواه، وأن سخطه

---

(١) رواه الترمذى فى سننه كتاب الزهد.

(٢) سورة النساء: ١١٤.

(٣) ليست بالأصل. وزيدت لحاجة السياق إليها.

(٤) كتبت بالهامش ولم يشر إليها الناسخ فى الأصل.

(٥) كتبت فى الأصل: قلوب. ثم صححها الناس فى الهامش.

(٦) ورد الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الزهد بلفظ مختلف، ولفظه: «أمرنا أن نحثى التراب فى وجوه المادحين» ، كما رواه أبو داود فى سننه كتاب الأدب، والترمذى فى سننه كتاب الزهد، وابن ماجه فى سننه كتاب الأدب.

للقضاء لا يغير للمقضى، فيلزم نفسه طريق الرضى بالقضاء ويستريح[1].

٢١- ومن عيوبها كثرة التمنى، والتمنى هو الاعتراض على الله تعالى فى قضائه وقدره.

ومداواتها: أن يعلم أنه لا يدرى ما يعقب التمنى، أيجره إلى خير أم شر؟ إلى ما يرضيه أو إلى ما يسخطه؟ فإذا أيقن اتهام عاقبة تمنيه أسقط عن نفسه ذلك، ورجع إلى الرضا والتسليم، فيستريح؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، وليقل: اللَّهُمَّ أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[2]. ولذلك قال النبى ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته»[3].

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن الرضا بالقضاء لا يستلزم بالضرورة الرضا بالمقضى- والسكوت عليه، فإذا قضى الله المرض على الإنسان فيجب الرضا بقضاء الله والإيمان به؛ ولكن لا يلزم السكوت على المرض، بل يجب شرعًا الأخذ فى أسباب كشف الضر الذى نزل، ومدافعته بالذهاب إلى الطبيب والعلاج، إعمالًا لقول الرسول ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله ما خلق داءً إلا وخلق له دواء». وهو بذلك لا يعترض على قضاء الله بالعلاج، وإنما يدفع قضاء الله بقضاء الله، ومدافعة القضاء بالقضاء أمر مشروع وواجب، كما يجأر المرء بالدعاء عند نزول الضر به. وهذا ما يقصده كبار الصوفية عندما يتحدثون عن الرضا بالقضاء وعدم السخط والتبرم بما نزل بالمرء من متعلقاته. راجع فى ذلك: رسالة أقوم ما قيل فى مسائل القضاء والقدر والتعليل لابن تيمية، رسالة الإرادة والأمر لابن تيمية، شفاء العليل لابن القيم.

(٢) ورد الحديث فى: صحيح البخارى كتاب الرضى، وصحيح مسلم كتاب الذكر، وسنن أبى داود كتاب الجنائز، وسنن النسائى كتاب الجنائز، وسنن ابن ماجه كتاب الزهد، وسنن الدارمى كتاب الرقائق، ومسند الإمام ابن حنبل: ٣٨٣/٢.

(٣) رواه ابن حنبل فى المسند: ٢٨٧/٢.

٢٢- ومن عيوبها محبتها الخوض فى أسباب الدنيا وحديثها.

ومداواتها: الاشتغال بالفكر الدائم فى كل أوقاته، ليشغله ذلك عن ذكر الدنيا وأهلها، والخوض فيما هم فيه، ويعلم أن ذلك مما لا يعنيه، فيتركه؛ لأن النبى ﷺ يقول: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

٢٣- ومن عيوبها إظهار طاعتها، ومحبة أن يعلم الناس منه ذلك ويروه، والتزين بذلك عندهم.

ومداواتها: أن يعلم أنه ليس إلى الخلق نفعه ولا ضره، ويجتهد فى مطالبة نفسه بالإخلاص فى أعماله؛ ليزيل عنه هذا العيب، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾(٢) والنبى ﷺ يقول حاكيًا عن ربه عز وجل أنه قال: «من عمل عملًا أشرك فيه غيرى فأنا منه بريء، وهو للذى أشرك»(٣).

٢٤- ومن عيوبها الطمع.

ومداواتها: أن [يعلم أن](٤) طمعه يدخله فى الرياء، وينسيه حلاوة

(١) ورد الحديث فى: سنن الترمذى كتاب الزهد، سنن ابن ماجه كتاب الفتن، الموطأ كتاب حسن الخلق. والهدف من حكاية هذا العيب التنبيه إلى الخطر الذى يلحق بالمؤمن إنما يكون إذا تسللت الدنيا إلى قلبه، فيتعلق بها القلب على أنها الغاية والأمر، كما قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة.

(٢) سورة البينة: ٥.

(٣) ورد الحديث فى: سنن ابن ماجه كتاب الزهد، باب من كان أشرف فى عمل عمله الله ...

(٤) ما بين المعقوفين ليس بالأصل.

العبادة، ويصيره عبدًا للعبيد بعد أن جعله الله حرًّا من عبوديتهم. وتعوذ النبي ﷺ من الطمع فقال: «أعوذ بك من طمع يجر إلى طمع، ومن طمع فى غير مطمع»[1]. وهو الطمع الذى يطبع على قلبه، فيرغبه فى الدنيا، ويزهده فى الآخرة. وروى عن بعض السلف أنه قال: الطمع هو الفقر الحاضر، والغنى الطامع فقير، والفقير المتعفف غنى، والطمع هو الذى يقطع الرقاب. وأنشد:

أيطمع فى ليلى بوصلى إنما ... يقطع أعناق الرجال المطامع

٢٥- ومن عيوبها حرصها على عمارة الدنيا[2] والتكثر منها.

ومداواتها: أن يعلم أن الدنيا ليست بدار قرار وأن الآخرة دار مقر والعاقل من يعمل لدار قراره لا لمراحل سفره فإن المراحل تنقطع بالمقام فى السفر، فيعمل إلى ما إليه مآبه. قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

(١) رواه البزار فى مسند ١٠٥/٧-١٦ بلفظ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبْعٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ حَيْثُ لَا مَطْمَعَ أَوْ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ».

(٢) لا شك أن عمارة الدنيا مطلب شرعى. وهذا جزء من وظيفة الوجود الإنسانى ولعله من العلل الغائية للوجود الإنسانى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] بمعنى: وطلب منكم عمارتها. والأمر هنا للوجوب بحسب الطاقة والاستطاعة. وإذا كان هذا يعد عيبًا من عيوب النفس عند السلمى إلا أنه يمثل فى ذلك الاتجاه العام فى التصوف الإسلامى أو الاتجاه الإيجابى فى التصوف، وإنما هى نزعة سلبية وجدناها فى كتابات بعض الصوفية، وكانوا يركزون فى ذلك على عدم تعلق القلب بغير الله ولغير الله، فكانت تخونهم العبارة أحيانًا عن المعنى المقصود، والسلمى لا يقصد من ذكر هذا العيب القعود عن طلب الرزق والكسب الحلال؛ لأنه اعتبر ترك الكسب والقعود عن طلب الرزق عيبًا من عيوب النفس. راجع: الفقرة ٥٨ من هذه العيوب.

وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[1] الآية، ولأن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[2]، ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[3]، ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4]، ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾[5]، ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[6].

٢٦- ومن عيوبها استحسان ما ترتكبه من الأمور، واستقباح أفعال من يرتكبها أو يخالفه.

ومداواتها: اتهام النفس؛ لأنها أمارة بالسوء، وحسن الظن بالخلق لانبهام العواقب.

٢٧- ومن عيوبها الشفقة على النفس والقيام بتعهدها.

ومداواتها: الإعراض عنها، وقلة الاشتغال بها؛ ولذلك سمعت جدى - رحمة الله عليه - يقول: من كرمت عنده نفسه هان عليه دينه.

٢٨- ومن عيوبها الانتقام لها، والخصومة عنها، والغضب لها.

ومداواتها: عداوتها، وبغضها، ومحبة الدين، والغضب لارتكاب المناهى،

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.

(٢) سورة النساء: ٧٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٩. وفى الأصل بدون لفظ: {والدار}.

(٤) سورة الزخرف: ٣٥.

(٥) سورة الأعلى: ١٧.

(٦) سورة الضحى: ٤.

كما روى عن النبى ﷺ: «أنه ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله، فكان ينتقم لله»[1].

٢٩- ومن عيوبها اشتغالها بالإصلاح الظاهر لرؤية الناس، وغفلته عن إصلاح الباطن الذى هو موضع نظر الله عز وجل.

ومداواتها: أن يتيقن أن الخلق لا يكرمونه إلا بمقدار ما جعل الله له فى قلوبهم، ويعلم أن باطنه موضع نظر الله، فهو أولى بالإصلاح من الظاهر الذى هو موضع نظر الخلق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]، وقال النبى ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[3].

٣٠- ومن عيوبها اهتمامها بالرزق. وقد ضمن الله ذلك، وقلة اهتمامها بعمل افترضه الله عليه لا يقوم عنه غيره.

ومداواتها: أن يعلم أن الله الذى خلقه ضمن له كفاية رزقه، فقال عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾[4]، كما لا يشك فى الخلق لا يشك فى الرزق.

سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت محمد بن عبيد يقول: يحكى عن

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده:٤٣/٤١٠ عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت: «مَا نِيلَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ فَانْتَقَمَهُ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ».

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سبق تخريج الحديث. راجع الفقرة رقم: ٨.

(٤) سورة الروم: ٤٠.

حاتم الأصم[1] أنه قال: ما من صباح إلا والشيطان يقول لى: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر.

٣١- ومن عيوبها كثرة الذنوب والمخالفات إلى أن يقسو القلب[2].

ومداواتها: كثرة الاستغفار، والتوبة فى كل نَفَس، ومداومة الصيام، والتهجد بالليل، وخدمة أهل الخير، ومجالسة الصالحين، وحضور مجالس الذكر. فإن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «أدنه من مجالس الذكر» وقال: «إنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة»[3]. قال: «إن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر الله ذهبت، فإن أذنب ثانيا نكت فى قلبه نكتة أخرى إلى أن يصير القلب بحيث لا يعرف معروفًا

(١) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف المعروف بالأصم من رجال الطبقة الأولى ومن قدماء مشايخ خراسان من أهل بلخ، صحب شقيق البلخى، كان مولى للمتنى بن يحيى المحاربى، مات حاتم فى قرية (واشجرد) قرب تزمذ فى بلاد ما وراء النهر، وكانت وفاته سنة ٢٣٧هـ. قيل: إنه أسند الحديث عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «صلى صلاة الضحى فإنه صلاة الأبرار، وسلمْ إذا دخلت بيتك يكثر خير بيتك». لم نعرف له مذهبًا خاصًا به فى التصوف، وروى عنه رجال التصوف مأثورات فى كتب الطبقات وكتب التصوف، من أقواله: من أصبح وهو مستقيم فى أربعة أشياء فهو يتقلب فى رضا الله: أولها الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة. يعرف الإخلاص بالاستقامة، والاستقامة بالرجاء، والرجاء بالإرادة، والإرادة بالمعرفة، اطلب نفسك فى أربعة: العمل الصالح بغير رياء، والأخذ بغير طمع، والعطاء بغير منَّة، والإمساك بغير بخل. انظر عنه: الطبقات السلمى: ص٢٢-٢٣، تاريخ بغداد: ٢٤١/٨، اللباب: ٥٧/١، الأعلام: ١٥١/٢.

(٢) فى الأصل: يقسى القلب.

(٣) ورد الحديث فى: سنن الدارمى كتاب الرقاق، ومسند ابن حنبل: ٢١١/٤.

ولا ينكر منكرا» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

٣٢- ومن عيوبها حبها للكلام على الناس، والخوض فى دقائق العلوم؛ ليصيد به قلوب الأغيار، ويصرف بحسن كلامه وجوه الناس إليه.

ومداواتها: العمل بما يعلم، وأن يعظ الناس بفعله لا بقوله، كما روى أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: «إذا أردت أن تعظ الناس، فعظ نفسك، فإذا اتعظت وإلا فاستحى منى»، وأن النبى ﷺ قال: «مررت ليلة الإسراء بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء العلماء من أمتك يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»[2].

٣٣- ومن عيوبها سرورها، ومدحها، وطلبها الراحة، وتلك من فضائح[3] الغفلة.

---

(١) الآية فى سورة المطففين: ١٤. والحديث رواه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان، والترمذى فى سننه كتاب التفسير، وابن ماجه فى سننه كتاب الزهد، وابن حنبل فى مسنده: ٢٩٧/٢.

(٢) حديث الإسراء والمعراج مشهور كتاب السنن، وقد روى من عدة طرق، والمصنف قد أخذ برواية ابن عباس للحديث، وقد رواه ابن حنبل مطولًا فى المسند: ١٢٠/٣، ٢٣١، ٢٣٩، والبخارى فى صحيحه كتاب التوحيد وكتاب بدء الخلق، ومسلم فى صحيحه كتاب الإيمان بالقدر، والترمذى فى سننه كتاب القيامة، وابن ماجه فى سننه كتاب الفتن، ومالك فى الموطأ كتاب الشعر، وابن حنبل فى مسنده: ٣٢١/١، ٣٥٧. وانظر تفسير سورة الإسراء فى صحيح البخارى.

(٣) كتبت فى الأصل هكذا: نكايح.

ومداواتها: التيقظ لما بين يديها، وعلمها بتقصيرها فيما أمر به، وارتكابها ما نهى عنه، وأن هذه الدار له سجن، لا سرور ولا راحة فى السجن، فإن النبى ﷺ قال[1]: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2] فيجب أن يكون عيشه فيها عيش المسجونين لا عيش المستروحين. وحكى عن داود الطائى أنه قال: قطع نياط قلوب العارفين أحد الخلودين. وقال رجل لبشر الحافى[3]: ما لى أراك مهمومًا؟ قال: لأنى مطلوب.

٣٤- ومن عيوبها اتباعها هواها، وموافقة رضاها، وارتكاب مراداتها.

ومداواتها: ما أمر الله به من قوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[4]،

---

(١) قال: ليست بالأصل.

(٢) ورد الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الزهد، وسنن الترمذى كتاب الزهد، وسنن ابن ماجه كتاب الزهد، ومسند ابن حنبل: ١٩٧/٢.

(٣) هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء ... الحافى، ولد سنة ١٥٠هـ، أصله من مدينة مرو من قرية بكرد، من رجال الطبقة الأولى على ما ذكره السلمى فى الطبقات، أقام ببغداد ومات بها، صحب الفضيل بن عياض، عرف بالعلم والورع، توفى يوم الأربعاء العاشر من المحرم سنة ٢٢٧هـ، قال عنه المأمون: لم يبق فى هذا الزمان رجال يخشى منه إلا هذا الشيخ؛ يعنى: بشر الحافى. روى عنه رجال الصوفية كثيرًا من المأثورات الصوفية فى الرضا والتسليم فى الأمور كلها لله. ومن أقواله: يأتى على الناس زمان تكون فيه الدولة فيه للحمقى على الأكياس، لا تكون كاملًا حتى يأمنك عدوك، الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس. انظر عنه: طبقات الصوفية ط الشعب ص: ٣-١٤١، روضات الجنات: ١٢٣/١، وفيات الأعيان: ٩٠/١، تاريخ بغداد: ٦٧/٧-٨٠، تاريخ ابن عساكر: ٢٢٨/٣، صفة الصفوة: ١٨٣/٢، حلية الأولياء: ٣٣٦/٨، طبقات الشعرانى: ٦٢/١، الأعلام: ٢٦/٢.

(٤) سورة النازعات: ٤٠.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1]، وما روى عن مطير الداري أنه قال: لنحت الجبال بالأظافير أهون من زوال الهوى إذا تمكن فى النفس.

٣٥- ومن عيوبها ميلها إلى معاشرة الأقران[2] وصحبة الإخوان.

ومداواتها: أن يعلم أن الصاحب له مفارق، والمعاشرة منقطعة، كما روى عن النبى ﷺ قال له جبريل عليه السلام: «عش ما عشت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى عليه»[3].

وقال أبو القاسم الحكيم: الصداقة عداوة إلا ما صفيت، وجمع المال حسرة إلا ما وليت، والمخالطة تخليط إلا ما داويت.

٣٦- ومن عيوبها أنسها بطاعتها، ورؤية استحسانها.

ومداواتها: أن[4] تعلم أفعالها وإن أخلصتها فهى معلومة بأن أفعالها لا تخلو من العلل، ويعمل فى إسقاط رؤية استحسانه عن أفعالها.

٣٧- ومن عيوبها إماتتها النفس باتباع الهوى والشهوات، فإن النفس إذا مكنت من ذلك ماتت عن الطاعات والموافقات.

ومداواتها: منعها من مراداتها، وحملها على المكاره، ومخالفاتها فيما تطلب، فإن ذلك الذى يميت منها شهواتها. قيل لأبى حفص: بما يستجلب

---

(١) سورة يوسف: ٥٣.

(٢) فى الأصل: الأفرتان.

(٣) كتب الناسخ بالهامش فى مقابلة هذه الكلمة: بلغ.
والحديث فى المعجم الأوسط: ٣٠٦/٤.

(٤) أن: ليست بالأصل. وأضفناها لحاجة السياق إليها.

صلاح النفس؟ قال: مخالفتها؛ لأنها موضع كل آفة.

٣٨- ومن عيوبها أن تأمن من مكر الشيطان وتسويله ومكره.

ومداواتها: تصحيح العبودية بشرائط، والتضرع إلى الله فى أن يمن عليه بذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[١].

٣٩- ومن عيوبها الترسم برسم الصلاح من غير مطالبة القلب بالإخلاص فيما ترسم به من الصلاح.

ومداواتها: ترك الخشوع الظاهر إلا بقدر ما يرى من خشوع الباطن فى قلبه وسره؛ لأن النبى ﷺ يقول[٢]: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوب زور»[٣].

٤٠- ومن عيوبها قلة الاعتبار بما يراه من إمهال الله إياه فى ذنوبه.

ومداواتها: دوام التنبه، وأن يعلم أن ذلك الإمهال ليس إمهالًا، فإن الله تعالى سائله عن ذلك، ومجازيه عن ذلك، إلا أن يرحمه الله، فإن الاعتبار لا يهمل الخشية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[٤]

قال القائل:

قد غرتها إمهال خالقها لها ... لا تحسبن إمهالها إهمالها

---

(١) سورة الحجر: ٤٢.

(٢) ليست بالأصل.

(٣) رواه الترمذى فى سننه بلفظ: «من تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور» وقال عنه: حسن غريب، وفى تحفة الأحوذى: ٦/١٧٣-١٧٥ أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأبى داود وابن حيان وقال المناوى: إسناده صحيح.

(٤) سورة النازعات: ٢٦.

٤١- ومن عيوبها محبتها لإفشاء عيوب إخوانه وأصحابه.

ومداواتها: أن يرجع فى ذلك إلى نفسه. فيحب للناس ما يحب لنفسه، وما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته»[١].

٤٢- ومن عيوبها ترك الاستزاده فى نفسه فى أفعاله وأقواله عن الاقتداء بالسلف، فإن على بن أبى طالب ﷺ قال: من لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان.

٤٣- ومن عيوبها تحقير المسلمين والترفع والتكبر عليهم.

ومداواتها: الرجوع إلى التواصل، واعتقاد حرمة المسلمين. فإن الله تعالى يقول لنبيه: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾[٢]؛ فيعلم أن الكبر الذى أوقع إبليس فيما أوقعه فيه حيث قال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [٣]، والنبى ﷺ نظر إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك إن الله حرم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثًا: دمه، وماله، وأن يظن به ظن السوء»[٤].

---

(١) سبق تخريج الحديث، راجع الفقرة رقم: ٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة ص: ٧٦.

(٤) رواه الترمذى، وليس فيه هذه الزيادة: إن الله حرم منك واحدة ... الخ. وقال عنه: حسن غريب ولا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد، وفى تحفة الأحوذى: ٦/١٨١- ١٨٢ أخرجه ابن حبان فى صحيحه. وقال الحافظ فى تهذيب التهذيب: رواه أحمد فى المسند: ٤/٤٢١.

٤٤- ومن عيوبها الكسل والقعود عن الأمر.

ومداواتها: أنه يعلم أنه مأمور من حبيبه الحق؛ ليحمله فرح ذلك على النشاط، ولذلك سمعت جدى إسماعيل بن محمد - رحمه الله تعالى -: التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر.

٤٥- ومن عيوبها أن تتزين بزى الصالحين، فتعمل عمل أهل الفساد.

ومداواتها: ترك زينة الظاهر إلا بعد إصلاح الباطن، فإذا تزين بزينة قوم اجتهد فى أن يوافقهم فى أخلاقهم وأفعالهم كلها وبعضها؛ لأنه روى فى الخبر أنه قال: كفى بالمرء شرًّا أن يرى الناس أنه يخشى الله وقلبه فاجر. وقال أبو عثمان: زينة الظاهر مع فجور يورث الأضرار.

٤٦- ومن عيوبها تضييع أوقاتها بالاشتغال بما لا يعنيه من أمور الدنيا والخوض فيها مع [رخصها][(١)].

ومداواتها: أن يعلم أن وقته أعز الأشياء، فيشغله بأعز الأشياء وهو ذكر الله والمداومة على طاعته، ومطالبته الإخلاص من نفسه، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(٢)]، ومن ترك ما لا يعنيه اشتغل بما يعنيه. وقال الحسن[(٣)]: عليك بنفسك إن لم تشغلها

(١) ما بين المعقوفين كلمة غير مقروءة تمامًا. وكأنها تقرأ مع (ما رخصها).

(٢) سبق تخريج الحديث. راجع الفقرة رقم: ٢١.

(٣) هو الحسن بن أبى الحسن بن سعيد البصرى التابعى. وهو سيد التابعين. لقبه أصحابه بذلك لما عرف به من الزهد والورع والالتزام بالسنة قولًا وعملًا، توفى سنة ١١٠هـ، تربى فى بيت النبوة، حيث كانت أمه تعمل فى خدمة أم المؤمنين أم سلمة، ولذلك كان الحسن ربيب =

شغلتك.

٤٧- ومن عيوبها الغضب.

ومداواتها: حمل النفس على الرضا بالقضاء، فإن الغضب جمرة من الشيطان، ولأن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصنى. فقال: «لا تغضب»[١]، ولأن الغضب يخرج العبد إلى حد الهلاك إذا لم يصحبه من الله تعالى زجر ومنع.

٤٨- ومن عيوبها الكذب.

ومداواتها: ترك الاشتغال برضى الخلق وسخطهم، فإن الذى يحمل صاحب الكذب على الكذب طلب رضى الناس، أو التزين لهم، وطلب الجاه عندهم، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الصدق يهدى إلى البر، والكذب

= بيت النبوة. عرف بمنهجه الخاص به فى الزهد، وبكثرة أقواله التى تجرى بها الحكمة، حتى أن عائشة – رضى الله عنها – مرت يومًا بالمسجد، وسمعت من يعظ الناس، ويعلمهم، ولفت نظرها كلام المتحدث وما يجرى عليه من فنون الحكمة. فقالت: من هذا الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء. فقيل لها: إنه الحسن البصرى. فقالت: نعم الرجل، إنه ربيب بيت النبوة أو كما قالت. عرف بين الصوفية المتقدمين بأنه صاحب طريق، وأن طريقته تتميز بالخوف من الله. ولذلك كان إذا رؤى الحسن كان كمن عاد من دفن حميمه، وإذا قرأ القرآن بكى وأبكى الحاضرين، ترجم له الصوفية والمعتزلة والمحدثون والمفسرون، واعتبرته كل فرقة من رجال طبقتها الأولى.

(١) ورد الحديث فى: صحيح البخارى كتاب الأدب، وسنن الترمذى كتاب البر، والموطأ كتاب حسن الخلق، والمسند لابن حنبل: ١٧٥/٢.

يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار»[1].

٤٩- ومن عيوبها الشح والبخل، وهما نتائج حب الدنيا.

ومداواتها: أن يعلم أن الدنيا قليلة، وأنها فانية، وأن حلالها حساب، وحرامها عذاب، كما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2]، وأن الله تعالى أخبر عنها أنها متاع الغرور، فلا يبخل بها ولا يشح، ويجتهد فى بذلها، ولا يمسك منها إلا مقدار ما يدافع به وقته، فإنه صلى الله عليه وسلم قال لبلال: «[أنفقْ يا بلال][3]، ولا تخش من ذى العرش بعد إقلالًا»[4].

٥٠- ومن عيوبها بعد أملها.

ومداواتها: تقريب الأجل، ويعلم أن بعض السلف قال: أحب الله ألا يؤمن على حال. فأخذ الأحوال كلها.

---

(١) جزء من حديث طويل، رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب، ومسلم فى صحيحه كتاب البر والأدب، وأبو داود فى سننه كتاب الأدب، والترمذى فى سننه كتاب البر، وابن ماجه فى سننه فى المقدمة، وابن حنبل فى المسند: ٢/١.

(٢) فى فيض القدير للمناوى أن البيهقى رواه فى شعب الإيمان وقال عنه: لا أصل له من حديث الرسول ﷺ، وقال: هو من مراسيل الحسن، وقال الحافظ العراقى: هو من كلام مالك ابن دينار، كما روا ابن أبى الدنيا، ورواه أبو نعيم فى الحلية، وعده ابن الجوزى من الموضوعات، وقال العراقى: إن مراسيل الحسن عندهم (يعنى الصوفية) أشبه بالريح، ومثلوا به فى الألفية للموضوع من كلام الحكماء. راجع: فيض القدير: ٣٦٨/٣ حديث رقم: ٣٦٦٢ ط بيروت.

(٣) ما بين المعقوفين، كتبت بالهامش. وأشار إليها الناسخ بالأصل.

(٤) مسند البزار: ٢٠٤/٤.

٥١- ومن عيوبها الاغترار بالمدائح الباطلة.

ومداواتها: ألا يغره كلام الناس مع ما يعرفه لنفسه، فإن حقيقة الأمر يخلص إليه دونه، وأن ثناءهم عليه دون ما يعرفه الله منه، ويعرفه هو من نفسه لا ينجيه فلم يجبره به.

٥٢- ومن عيوبها الحرص.

ومداواتها: أن يعلم أنه لا يستجلب بحرصه زيادة ما قدر الله من رزقه، كما روى ابن مسعود عن النبي ﷺ «أن الله تعالى يقول للملك: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد»[١]، والله تعالى يقول: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢].

٥٣- ومن عيوبها الحسد.

ومداواتها: أن يعلم أن الحسد[٣] عدو نعمة الله، وأن النبي ﷺ قال: «لا تحاسدوا»[٤]، وشيمة الحسد من قلة الشفقة على المسلمين.

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخارى فى صحيحه كتاب بداء الخلق، وكتاب القدر عن ابن مسعود، ومسلم فى صحيحه كتاب القدر، وأبو داود فى سننه كتاب السنة، والترمذى فى سننه كتاب القدر، وابن ماجه فى سننه فى المقدمة.

(٢) سورة ق: ٢٩.

(٣) كتب الناسخ فى مقابلتها بالهامش: لعلها الحاسد.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب، ومسلم فى صحيحه كتاب البر، والترمذى فى سننه كتاب البر، وأبو داود فى سننه كتاب الدعاء، ومالك فى الموطأ كتاب حسن الخلق، وابن حنبل فى مسنده: ١/٥، ٧.

٥٤- ومن عيوبها الإصرار على الذنب مع تمنى الرحمة ورجاء المغفرة.

ومداواتها: أن يعلم أن الله أوجب مغفرته لمن لا يصر على الذنب؛ حيث قال: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[١]، وقال أبو الفيض: الإصرار على الذنب من التهاون بقدر الله، ويعلم أن الله تعالى أوجب الرحمة للمحسنين فقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٢]، وأوجب المغفرة للتائبين؛ حيث قال: {﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾[٣]، ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[٤].

٥٥- ومن عيوبها لا تحبب إلى طاعة الله طوعًا.

ومداواتها: بالجوع والعطش، والتقطع فى الأسفار، والحمل على المكاره، ولذلك سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت عمى البسطامى يقول: سمعت أبى يقول: قال رجل لأبى يزيد البسطامى[٥]: ما أشد ما لقيت فى سبيل

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

(٣) سورة هود: ٥٢.

(٤) سورة طه: ٨٢.

(٥) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان، ولد سنة ١٨٨هـ، وكان سروشان مجوسيًا، فأسلم من رجال الطبقة الأولى، عرف هو وأخوه (آدم وعلى) بأنهما جميعًا من أصحاب الزهد والعبادة والأحوال، توفى سنة ٢٦١هـ، من أهل بسطام، ونسب إليها. قيل: إنه أسند الحديث عن أبى سعيد الخدرى، قال رسول الله ﷺ: «إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذلهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره =

الله؟ فقال: لا يمكن دحضه ما أهون ما لقيت منك نفسك فى سبيل الله؟ فقال: أما فنعم. دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبنى طوعًا، فمنعتها سنه كاملة.

٥٦- ومن عيوبها حرصها على الجمع والمنع.

ومداواتها: أن يعلم انتهاء عمره، وقرب أجله، فيجمع على قدر نفسه، ويمنع بقدر حياته، فمن لا يأمن على نفسه من أنفاسه، فجمعه غرور، [ومنعه لغيره مع حصول][(١)] السباعة على نفسه جهل، مع ما روى عن النبي ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ فقالوا: ليس منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه، فقال: مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت»[(٢)].

٥٧- ومن عيوبها صحبتها مع المخالفين والمعارضين عن الحق.

ومداواتها: الرجوع إلى صحبة الموافقين والمقبولين عند الله تعالى، فإن

= حراص حريص، ولا يرده كره كاره، إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط، سئل بماذا يستعان على العبادة؟ فقال: بالله إن كنت تعرفه». ومن أقواله: عرفت الله بالله، وعرف ما سوى الله بنور الله. ملامة العارف ألا يفتر عن ذكره. لا يمل من حقه. ولا يستأنس بغيره. وسئل بماذا نالوا المعرفة؟ فقال: بتضييع مالهم والوقوف مع ماله. انظر طبقات الصوفية: ص١٨-١٩، الطبقات الكبرى للشعرانى: ١/٦٥-٦٦، صفة الصفوة: ٤/٨٩-٩٤، شذرات الذهب: ٢/١٤٣-١٤٤، ميزان الاعتدال: ٢/٣٤٦-٣٤٧، الرسالة القشيرية: ١/٨٠-٨٢، الأعلام للزركلى: ٣/٣٣٩.

(١) ما بين المعقوفين مكتوب بالهامش.

(٢) الأدب المفرد: ص٦٥.

النبي ﷺ قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1] وقال بعض السلف: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار. وقال بعضهم: القلوب إذا بعُدت عن الله مقتت القائمين[2] بحق الله.

٥٨- ومن عيوبها الغفلة.

ومداواتها: أن يعلم أنه ليس بمغفول عنه، وأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[3]، ويعلم أنه محاسب على الخطرة والهمة، ومن تحقق هذا راقب أوقاته، وراعى أحواله، ليزول عنه بذلك عيب الغفلة.

٥٩- ومن عيوبها ترك الكسب والقعود عنه، إظهاًرا للخلق أنه قعد متوكلًا، ثم يتشوف للأرفاق، ويتسخط إذا لم يأته الأرفاق.

ومداواتها: أن يلزم الكسب كما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أطيب ما أكل الرجل من كسبه»[4] فإن عليه كسبًا[5] ظاهرًا وتوكلًا[6] باطنًا؛ ليكون مكتسبًا مع الخلق فى الظاهر ومتوكلًا على الله فى الباطن.

٦٠- ومن عيوبها الفرار بما يوجبه عليه ظاهر العلم إلى الدعاوى

---

(١) رواه أبو داود فى سننه كتاب اللباس، وابن حنبل فى المسند: ٢/٥٠.

(٢) فى الأصل: القائمون وهو خطأ.

(٣) سورة هود: ١٢٣.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب البيوع، وابن ماجه فى سننه كتاب المقدمة، وكتاب التجارات بلفظ: «ما كسب ... أطيب».

(٥) فى الأصل: كسب. وهو خطأ.

(٦) فى الأصل: توكل. وهو خطأ.

والأحوال.

ومداواتها: ملازمة العلم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[3].

٦١- ومن عيوبها استعظام ما تعطى وما تبذل والافتتان به على من يأخذ.

ومداواتها: أن يعلم أنه يوصل إليهم أرزاقهم، وأن الرازق والمعطى فى الحقيقة هو الله، وأنه واسطة، ولا تتعاظم فى إيصال حق إلى مستحق.

٦٢- ومن عيوبها إظهار الفقر مع الكفاية.

ومداواتها: إظهار الكفاية مع القلة، سمعت جدى - رحمه الله تعالى - يقول: كان الناس يدخلون فى التصوف أغنياء، ويفتقرون، ويظهرون الغنى، وفى هذا الوقت يدخلون فى التصوف فقراء، ويستغنون، ثم يظهرون للناس الفقر.

٦٣- ومن عيوبها رؤية فضله على إخوانه وأقرانه.

ومداواتها: العلم بنفسه، ولا أعلم بنفسه منه، وحسن الظن بأقرانه، ليحمله ذلك على احتقار نفسه، ورؤية فضل إخوانه وأقرانه، ولا يصح له

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة المائدة: ٩٢.

(٣) رواه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة.

ذلك إلا بعد أن ينظر إلى الخلق أجمعين بعين الزيادة، وينظر إلى نفسه بعين النقصان، كذلك سمعت جدى يقول: سمعت أبا عبد الله السجزى[1] يقول: لك فضل ما لم تر فضلك، فإذا رأيت فضلك فلا فضل لك.

٦٤- ومن عيوبها حمل النفس ما يستجلب لها الفرح.

ومداواتها [أن يعلم][2] أن الله يبغض الفرحين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[3]، وفى حياة[4] النبى ﷺ أنه كان دائم الأحزان، متواصل الفكر، وقال النبى ﷺ: «إن الله يحب كل قلب حزين»[5]. وقال مالك بن دينار[6]: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن البيت إذا لم

(١) هو أبو عبد الله السجزى. لم تذكر له كتب الطبقات تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، غير أن السلمى ذكر فى طبقات الصوفية أن صاحب أبا حفص وعده من رجال الطبقة الثانية، وهو من كبار مشايخ خراسان، عرف بكثرة السياحة فى البرارى والانقطاع عن الدنيا، ومن أقواله: علامة الأولياء ثلاثة: تواضع عن رفعة، وزهد عن مقدرة، وإنصاف عن قوة. أنفع شيء للمريدين صحبة الصالحين، والاقتداء بهم فى أفعالهم وأخلاقهم والقيام بخدمة الأصحاب والرفقاء. راجع: طبقات الصوفية: ص٦٠.

(٢) ما بين المعقوفين ليس بالأصل.

(٣) سورة القصص: ٧٦.

(٤) فى الأصل: حية.

(٥) أورده المناوى فى فيض القدير: ٢/٢٩٥ عن أبى الدرداء، وقال: رواه ابن حنبل، والحاكم فى المستدرك وصححه، والطبرانى فى المعجم الكبير، وقال: رده الذهبى؛ لأنه منقطع، وقال الهيثمى: إسناد الطبرانى حسن.

(٦) مالك بن دينار البصرى أبو يحيى، من رواة الحديث، عرف بالزهد والورع، توفى بالبصرة سنة ١٣١هـ، كان يكتب المصاحف بالأجرة، وكان يأكل من كسب يده، وقد أورد المناوى الأثر المذكور فى فيض القدير: ٢/٢٩٥ بدون إسناده إلى مالك بن دينار. انظر: وفيات الأعيان: ١/٤٤٠، حلية الأولياء: ٢/٣٥٧، تهذيب التهذيب: ١٠/١٤-١٥، الأعلام: ٦/١٣٤.

يسكن خرب.

٦٥- ومن عيوبها أن يكون فى محل الشكر وهو يظهر أنه فى مقام الصبر.

ومداواتها: رؤية نعم الله فى جميع الأحوال. سمعت سعيد بن أبى عبد الله يقول: سمعت عمى يقول: سمعت أبا عبد الله عثمان يقول: الخلق كلهم مع الله تعالى فى مقام الشكر، وهم يظنون أنهم معه فى مقام الصبر.

٦٦- ومن عيوبها تناول الرخيص بالتأويلات.

ومداواتها: اجتناب الشبهات، وأنها تؤدى إلى فعل الحرام، ألا ترى أن النبى ﷺ يقول: «الحلال بينٌ، والحرام بينٌ، وبينهما مشتبهات، فمن اجتنبهن فهو أسلم لدينه وعرضه، ومن واقعهن وقع فى الحرام؛ كالراعى حول الحمى يوشك أن يخالط الحمى، ألا وإن لكل ملك حما، وإن حما الله محارمه»[١].

٦٧- ومن عيوبها الإغضاء على نفسه فى عثرة تقع له، أو زلة وأمثالها. كذلك سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول: سمعت أبا عثمان[٢] يقول:

---

(١) ورد الحديث بألفاظ مختلفة فى صحيح البخارى كتاب الإيمان، وصحيح مسلم كتاب المساقاة، وسنن ابن ماجه كتاب الفتن، وسنن الدارمى كتاب البيوع.

(٢) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابورى، من رجال الطبقة الثانية، صحب يحي بن معاذ، وهو من أوحد المشايخ فى عصره، ومنه انتشرت الطريقة، كان شديد التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء فى الله، ومنها: تعززوا بعز الله حتى لا تذلوا. ومنها: سرورك بالدنيا اذهب سرورك بالله، من قلبك وخوفك من غيره، أذهب خوفك منه عن قلبك، ورجاؤك من دونه أذهب رجاءك إياه من قلبك. راجع الطبقات: ص٤٠.

عامة المريدين من إغضائهم مع عثرة[1] تقع لهم أو هفوة، وترك مداواتها فى الوقت بدواعى، حتى تعتاد النفس ذلك، فتسقط من درجة الإرادة.

٦٨- ومن عيوبها الاغترار بالكرامات.

ومداواتها: أن يعلم أن أكثرها اغترار واستدراج، والله تعالى يقول: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]. وقد قال بعض السلف: ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات.

٦٩- ومن عيوبها محبة مجالسة الأغنياء وميله إليهم، وإقباله عليهم، وإكرامه لهم[3].

ومداواتها: مجالسة الفقراء، والعلم بأنه لا يصل إليه مما فى أيديهم إلا مقدار ما قدره الله له، فيقطع الطمع منهم، فيسقط ذلك محبتهم والميل إليهم، ويعلم أن الله عاتب نبيه ﷺ فى مجالسة الأغنياء، [والإعراض عن الفقراء][4] فقال: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[5]. فقال النبى ﷺ بعد ذلك: «المحيا محياكم والممات مماتكم»[6]. وقال للفقراء: «أمرت أن أصبر

(١) فى الأصل: مع كثرة تقع لهم. وهى لا معنى لها. وفضلت قراءتها: عثرة تقع لهم؛ لأنها توافق السياق العام، ولعلها خطأ من الناسخ.

(٢) سورة القلم: ٤٤.

(٣) فى الأصل: وكرامة لهم.

(٤) ما بين المعقوفين مكتوب بالهامش.

(٥) سورة عبس: ٥-١٠.

(٦) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد، وابن حنبل فى المسند: ٥٢٨/٢.

نفسى معكم»، وقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين»[1]، وأن النبى ﷺ قال لعلى ولغيره: «عليك بحب المساكين والدنو منهم».

وقد بينت فى هذه الفصول بعض معايب النفس يستدل العاقل بذلك على ما وراءها، ويخرج منها من يؤيده الله بتوفيق وتسديد، مع إقرارى بأنه لا يمكن استيفائى معايبها. وكيف يمكن ذلك والنفس معيوبة بجميع أوصافها، فهى لا تخلو من عيب. وكيف يمكن إحصاء عيب ما كلها عيب؛ وقد وصفها الله تعالى بأنها الأمارة بالسوء، إلا أنه ربما يصلح العبد من عيوبها شيئًا ببعض هذه المداواة، فيسقط عنه من عيوبها.

والله تعالى يوفقنا لمتابعة الرسل، ويزيل عنا موارد الغفلة والشهوات، ويجعلنا فى كنفه، وحياطته، وعصمته، ورعايته، فإنه القادر على ذلك والوهاب له. إنه أرحم الراحمين.

انتهت فصول عيوب النفس للشيخ السلمى - رحمه الله ورضى عنه - آمين آمين آمين.

تم هذا بحمد الله

(١) رواه الترمذى فى سننه كتاب الزهد، وابن ماجه فى سننه كتاب الزهد.

المصادر والمراجع

١- الإخلاص والنية لابن أبى الدنيا.

٢- الأدب المفرد للبخارى.

٣- الإسلام بين الشرق والغرب لعزت بيجوفتيش.

٤- الأعلام للزركلى.

٥- إغاثة اللهفان لابن القيم.

٦- الإمام الغزالى الذكرى المئوية التاسعة – إصدار جامعة قطر.

٧- تاريخ ابن عساكر.

٨- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان.

٩- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.

١٠- تحفة الأحوذى.

١١- التحفة العراقية فى الأعمال القلبية لابن تيمية.

١٢- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة للكنانى.

١٣- تهذيب التهذيب لابن حجر.

١٤- الحلية لأبى نعيم.

١٥- دائرة المعارف الإسلامية.

١٦- الدر المنثور للسيوطى.

١٧- دقائق التفسير لابن تيمية.

١٨- الرسالة القشيرية للسلمى.

١٩- رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية.

٢٠- الزهد لأحمد بن حنبل.

٢١- السنة لأبى عاصم.
٢٢- سنن ابن ماجه.
٢٣-سنن أبى داود.
٢٤-سنن الترمذى.
٢٥-السنن الكبرى للبيهقى.
٢٦-شذرات الذهب لابن العماد.
٢٧-شرح ابن رجب الحنبلى على الأربعين.
٢٨- شعب الإيمان للبيهقى.
٢٩-صحيح ابن حبان.
٣٠- صحيح البخارى.
٣١-صحيح مسلم.
٣٢-صفة الصفوة للجوزى.
٣٣- طبقات ابن أبى يعلى.
٣٤-طبقات الشافعية للسبكى.
٣٥- طبقات الصوفية للسلمى.
٣٦- الطبقات الكبرى للشعرانى.
٣٧- الفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام للمحقق.
٣٨- الفهرست لابن النديم.
٣٩- فى ظلال القرآن لسيد قطب.
٤٠- فيض القدير للمناوى.
٤١- قضية الخير والشر لدى مفكرى الإسلام للمحقق.
٤٢- كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعبادة لله للمحقق.

٤٣-مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين لابن القيم- تحقيق الدكتور/ عبد الحميد مدكور
٤٤-المستدرك للحاكم
٤٥-مسند أبى داود الطيالسى.
٤٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٤٧- مسند البزار.
٤٨- المعجم الأوسط للطبرانى.
٤٩-المعجم الكبير للطبرانى.
٥٠- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة للمحقق
٥١- ميزان الاعتدال للذهبى.
٥٢- وفيات الأعيان لابن خلكان.
٥٣- اليواقيت والجواهر للشعرانى.

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الأولى..... ٣
أبو عبد الرحمن السلمى ٥
منهجنا فى تحقيق الكتاب:..... ٩
منهج المؤلف:..... ١٥
النفس كما يراها الصوفية ٢٣
بين السلمى والغزالى: ٣١
النفس كما تحدث القرآن ٤٠
أمراض القلوب: ٥٢
خصائص النفس: ٦٠
علاج مرض الشهوة والشبهة:..... ٧٢
من علامات النفوس المريضة: ٧٨
بين النفس والقلب: ٧٩
تكريم الإنسان فى القرآن ٨٤
مسئولية الإنسان كما تحدث القرآن ١٠١
المسئولية على قدر العطاء:..... ١٠٧
ما قبل الوجود:..... ١١٨
النص المحقق ١٣١
المصادر والمراجع ١٧١
فهرس الموضوعات ١٧٥